ثالثًا : الأخـــلاق

obeikandl.com

obeikandl.com

الحديث العاشر: ثلاثة يتأخرون عن دخول الجنة دخولاً أوليًّا

حدثنا أحمد بن منيع حدثنا يزيد بن هارون حدثنا صدقة بن موسى عن فرقد السبخي عن مرة الطيب عن أبي بكر الصديق عن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة خب ولا بخيل ولا منان**».

- تخريج الحديث:

تحفة الأحوذي م٦، كتاب البر والصدقة، باب ما جاء في البخل، ص٩٨.

هذا حديث حسن غريب.

تعريف الترمذي للحسن: كل حديث يروى لا يكون في إسناده من يتهم بالكذب ولا يكون الحديث شاذًّا، ويروى من غير وجهه نحو ذلك فهو عندنا حديث حسن.

- «الغريب» هو ما ينفرد بروايته واحد.

ومعنى ذلك أن الحديث انفرد برواية أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - فهو غريب من هذه الناحية، ولا يوجد في إسناده من يتهم بالكذب ولا بالشذوذ، فهو حسن من هذا الباب.

- المعاني اللغوية:

خَب: بفتح الخاء وكسرها، أي خداع يفسد بين الناس.

بخيل: يمنع الواجب من المال.

ولا منّان: أي يمنّ على الفقراء بعد العطاء، أو من المن بمعنى القطع لما يجب أن يوصل[1].

(١) تحفة الأحوذي، م٦ كتاب البر والصدقة، باب ما جاء في البخل، ص٩٨.

obeikandl.com

أبو بكر الصديق:

خليفة رسول الله ﷺ، اسمه عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن سعد ابن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب القرشي، يلتقي مع رسول الله ﷺ في مرة.

ولقب عتيقًا لعتقه من النار، وقيل لعتاقة وجهه أي حسنه وجماله.

قال مصعب بن الزبير وغيره: وأجمعت الأمة على تسميته بالصديق؛ لأنه بادر إلى تصديق رسول الله ﷺ ولازم الصدق، فلم تقع منه هنة ما، ولا وقفة في حال من الأحوال. وكانت له في الإسلام المواقف الرفيعة، منها قصته يوم الإسراء وثباته وجوابه للكفار في ذلك. وهجرته مع رسول الله ﷺ، وتركه عياله وأطفاله، وملازمته في الغار وسائر الطريق، ثم كلامه يوم بدر ويوم الحديبية حين اشتبه على غيره الأمر في تأخر دخول مكة، ثم بكاؤه حين قال رسول الله ﷺ: «إن عبدًا خيره الله بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة». ثم ثباته يوم وفاة رسول الله ﷺ وخطبته الناس وتسكينهم. ثم قيامه في قضية البيعة لمصلحة المسلمين، ثم اهتمامه وثباته في بعث جيش أسامة بن زيد إلى الشام وتصميمه في ذلك، ثم قيامه في قتال أهل الردة ومناظرته للصحابة حتى حجهم بالدلائل وشرح الله صدورهم لما شرح الله صدره من الحق وهو قتال أهل الردة، ثم تجهيزه الجيوش إلى الشام لفتوحه وإمدادهم، ثم ختم ذلك بمهمة كبيرة وهي من أحسن مناقبه وأجل فضائله وهو استخلافه على المسلمين عمر ـ رضي الله عنه ـ وتفرسه فيه، ووصيته له، واستيداعه الله الأمة، فخلفه الله ـ عز وجل فيهم ـ أحسن الخلافة، وظهر لعمر الذي هو حسنة من حسناته وواحدة من فعلاته تمهيد الإسلام وإعزاز الدين وتصديق وعد الله تعالى بأن يظهره على الدين كله. وكم للصديق من مناقب وفضائل لا تحصى. هذا كلام النووي.

قال النووي: وكان من رؤساء قريش في الجاهلية وأهل مشاورتهم وأعلم لمعالمهم، فلما جاء الإسلام آثره على ما سواه، ودخل فيه أكمل دخول، وكان أحدَ عشرةٍ من قريش اتصل بهم شرف الجاهلية والإسلام، فكان إليه أمر الديات والغرم.

- ثناء الرسول ﷺ:

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما كلمت في الإسلام أحدًا إلا أبى عليّ وراجعني في الكلام إلا ابن أبى قحافة فإني لم أكلمه في شيء إلا قبله واستقام عليه».

وأخرج أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر». فبكى أبو بكر وقال: هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله؟

وأخرج أبو سعيد بن الأعرابي عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: أسلم أبو بكر - رضي الله عنه - يوم أسلم وفي منزله أربعون ألف درهم فخرج إلى المدينة في الهجرة وما له غير خمسة آلاف، كل ذلك ينفقه في الرقاب والعون على الإسلام.

وأخرج الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه إلا أبا بكر فإن له عندنا يدًا يكافئه الله بها يوم القيامة، وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر».

وقال رسول الله ﷺ: «إن من أمنّ الناس عليّ في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذًا خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته. لا يبقين باب إلا سد إلا باب أبي بكر».

أخرج تميم الرازي في فوائده وابن عساكر عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أتاني جبريل فقال: إن الله يأمرك أن تستشير أبا بكر».

أجمع أهل السنة أن أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي، ثم سائر العشرة، ثم باقي أهل بدر، ثم باقي أهل أحد، ثم باقي أهل البيعة، ثم باقي الصحابة.

قال أحمد والترمذي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياءً عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرأهم أبي ابن كعب، ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح».

كان أول بدء مرض أبي بكر أنه اغتسل يوم الإثنين لسبع خلون من جمادى الآخرة، وكان يومًا باردًا، فحم خمسة عشر يومًا لا يخرج إلى صلاة وكان يأمر عمر بن الخطاب يصلي بالناس. وتوفي ـ رحمه الله ـ مساء ليلة الثلاثاء لثمان ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من مهاجر النبي ﷺ، فكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليالٍ وتوفي رحمه الله وهو ابن ثلاث وستين سنة(١).

- المعنى العام:

هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة، والبيئة المدنية كانت تموج بشتى العادات والتقاليد والقيم والموازين التي تحتاج إلى التنقية من الغبش والتطهير من أدران الحياة ورواسب الجاهلية. فكان هناك من يضن بالمال فلا يعطيه إلا بالربا، وكان هناك من ينفقه كارهًا أو مرائيًا، وكان هناك من يتبع النفقة بالمن والأذى، وكان هناك من يقدم الرديء من ماله ويحتجز الجيد، وكان هناك من يسعى بالنميمة ويفرق بين الأحبة، وكلها كانت من بقايا أمراض الجاهلية، وكل هؤلاء إلى جانب المنفقين في سبيل الله المخلصين له. كان هؤلاء وكان أولئك في

(١) راجع تاريخ الخلفاء، للسيوطي، ص٢٧ ـ ١٠٨، والطبقات، لابن سعد، م٣ ص٢٠٢، باختصار وتصرف.

البيئة المدنيـة في حاجة إلى التوجيـه النبوي، وإلى أنظمة وقـوانين تضبط حياتهم وتـوجههم إلى الوجهـة الـربـانية للـرعيـة. والأمور الماليـة لا يبـدأ بها بالفـرض والتكليف، وإنما بالحض والتأليف، فكانت البداية ﴿**مثل الذي ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلـة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم**﴾.

وكذلـك الأمراض النفسية تعـالج بالتشجيع والتكـريم والتوجيـه والنصح. قـال رسول الله ﷺ: «إن أحبكم إليّ أحـاسنكم أخـلاقًا الموطأون أكنـافًا الـذي يألفـون ويـؤلفـون وإن أبغضكم إليّ المشـاءون بـالنميمـة المفـرقـون بين الأحبـة الملتمسون للبراء العبب».

والخب يعني خداع النفس يفسـد بين الناس، وعادة الـرجل المتصف بالخب والخداع ما يكون بخيـلاً وجبانًا. قال رسـول الله ﷺ: «خصلتان لا تجتمعان في مـؤمن: البخل وسـوء الخلق». وتأويل هذا الحديـث أن نقول: المراد بـاجتماع الخصلتين فيه هـو بلوغ النهـاية بحيث لا ينفك عنهما ويوجـد منه الـرضا بهما. فأمـا الذي يبخل حينًـا ويسـوء خلقه في وقت أو في أمـر دون أمـر، ويندر منـه فينـدم ويلـوم نفسـه أو تـدعـوه النفس إلى ذلـك فينـازعهـا، فإنـه بمعـزل عن ذلك[1].

ولأن الشخصية المؤمنة لا تلائمها معـاني الخب ولا فساد بين الناس والتفريق بين الأحبة والبخل بـالمال وبالعمل وبالدعـاء. إذ إن الأصل في المؤمن أن يكون كريمًا.

عن يحيى بن كثير عن أبي سلمـة عن أبي هـريرة قـال: قال رسـول الله ﷺ:

---

(١) تحفة الأحوذي، مجلد ٦، باب ما جاء في البخل ص٩٨.

«المؤمن غر كريم والفاجر خب لئيم»[1]. أي له الاغترار بكرمه وله المسامحة في حظوظ الدنيا لا لجهله، والفاجر خب لئيم، أي بخيل لجوج سيئ الخلق. يريد أن المؤمن المحمود من طبعه الغرارة وقلة الفطنة للشر وترك البحث عنه، وليس ذلك منه جهلاً، ولكن لكرمه وحسن خلقه، فهو ينخدع لسلامة صدره وحسن ظنه»[2].

ولا يدخل الجنة بخيل؛ لأن الذي يبخل بنفسه وماله يبلغ أقصى ما يبلغه إنسان بنفسه من تعريضها للفساد، ويستحق أن يعسر الله عليه كل شيء، فييسره للعسرى، ويوفقه إلى كل وعورة، ويحرمه كل تيسير. عملاً بقوله تعالى: ﴿**وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى**﴾[3]. ولا يدخل الجنة دخولاً أوليًّا، وإنما يحاسب عن بخله وعن خبه ولؤمه، وهو يدخل فيمن يشنأهم الله تعالى، كما ورد في حديث أبي ذر: «ثلاثة يحبهم الله وثلاثة يشنأهم الله عز وجل: التاجر الحلاف ــ أو قال البائع الحلاف ـ والبخيل المنان والفقير المختال»[4]. والكلمة الأخيرة في الحديث و«المنان» وهو أخطر وأهم ما في الحديث؛ لأن المن عنصر كريه لئيم، وشعور خسيس مذموم؛ فالنفس البشرية لا تمن بما أعطت إلا رغبة في الاستعلاء الكاذب أو رغبة في إذلال الآخذ، أو رغبة في لفت أنظار الناس، وكلها مشاعر وصفات لا تتلاءم مع روح الإسلام المتضمنة في قوله تعالى: ﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾، وفي قول الرسول ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»، ومن ثم يحيل الصدقة أذى للواهب وللآخذ على السواء؛ أذى للمعطي بما يثير في نفسه من كبر وخيلاء،

---

(١) تحفة الأحوذي، مجلد ٦، باب ما جاء في البخل، ص٩٨.

(٢) المصدر نفسه ص٩٨ ـ ٩٩.

(٣) سورة الليل، آية ٨ ـ ١٠.

(٤) مسند أحمد بن حنبل، ج٥، ص١٥١.

وأذى للآخذ بما يثير في نفسه من انكسار وانهزام ومن رد فعل من حقد وانتقام. «وبعض الباحثين النفسيين يرون أن رد الفعل الطبيعي للنفس البشرية للإحسان هو العداء في يوم من الأيام؛ لأن الآخذ يحس بالنقص والضعف أمام المعطي، ويظل هذا الشعور يحز في نفسه فيحاول الاستعلاء عليه بالتجهم لصاحب الفضل عليه، وإضمار العداوة له»(١).

وقد عالج الإسلام هذه المشكلة بأنظمة دقيقة؛ فإنه يقرر أن المال مال الله، وأن الرزق الذي في أيدي الأثرياء هو رزق الله، فإذا أعطى الغني من ماله شيئًا فإنه من مال الله أعطى، وإذا أسلف حسنة فإنما هو قرض لله يضاعفه له أضعافًا كثيرة، وإلى هذه المفاهيم النيرة يشير الحديث: «لا يدخل الجنة خب ولا بخيل ولا منان» توكيدًا وتوضيحًا لحكمة الإنفاق والبذل؛ لأن الغرض هو تهذيب النفوس وترضية القلوب. قال تعالى: ﴿**قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم**﴾(٢)؛ لأن الصدقة التي يتبعها أذى لا ضرورة لها، وأولى منها كلمة طيبة تضمد جراح القلوب وتفعمها بالرضا والبشاشة، ومغفرة تغسل أحقاد النفوس وتحل محلها الإخاء والصداقة، وهو عين الإسلام وروح هذا الدين. ﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾.

- فقه الحديث:

قوله: «لا يدخل الجنة» أي دخولاً أوليًّا، ومع هذه الصفة حتى يجعل طاهرًا منها إما بالتوبة عنها في الدنيا أو بالعقوبة بقدرها تمحيصًا في العقبىٰ، أو بالعفو عنه تفضلاً وإحسانًا، ويؤيده قوله تعالىٰ: ﴿**ونزعنا ما في صدورهم من غل**﴾ كذا في المرقاة(٣).

---

(١) راجع ظلال القرآن، سورة البقرة، ج٣ ص٣٠٧.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٦٣.

(٣) تحفة الأحوذي، ج٦، ص٩٨ (باب ما جاء في البخل).

- ما يستفاد من الحديث :

١ - الحديث يعالج أمراض النفس المسلمة من الخداع، والمكر والبخل والمن، ويطهرها من الأدران؛ حتى تكون لبنة صالحة في بناء المجتمع الإسلامي.

٢ - الحديث يدعو إلى الإنفاق الذي يرفع المشاعر الإنسانية ولا يشوبها، الإنفاق الذي لا يؤذي كرامة ولا يخدش شعورًا، الإنفاق الذي ينبعث عن أريحية ونقاء، ويتجه إلى الله وحده ابتغاء رضاه.

obeikandl.com

الحديث الحادي عشر: ذو الوجهيـــن

حـدثني إسحـاق بن إبـراهيم أخبرنا جـريـر عن عُمارة عن أبي زُرعـة عن أبي هـريـرة ــ رضي الله عنـــه ــ عن رسـول الله ﷺ قـال: «**وتجدون شر النـاس ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه، ويأتي هؤلاء بوجه**».

- تخريج الحديث:

- فتح الباري بشرح صحيح البخـاري، ج٦ ـ كتاب المناقب ــ باب قول الله تعالى: ﴿**يا أيها النـاس إنا خلقنـاكم من ذكر وأنثى وجعلنـاكم شعوبـا وقبائل لتعارفوا إن أكـرمكم عند الله أتقاكم**﴾. وقوله: ﴿**واتقوا الله الذي تسـاءلون به والأرحام إن الله كـان عليكم رقيبًا**﴾. وما ينهى عن دعـوى الجاهلية ـ ح٣٤٩٤ ص٦٠٨، ج١٠ كتـاب الأدب ــ بـاب مـا قيل في ذي الـوجهين ــ ح٦٠٥٨ ص٤٨٩، ج١٣ كتاب الأحكام ــ باب ما يكره من ثنـاء السلطان، وإذا خرج قال غير ذلك ـ ح٧١٧٩ ص١٨٢.

- صحيح مسلم بشرح النووي، ج١٦، كتاب البر والصلـة والآداب ـ باب ذم ذي الوجهين، وتحريم فعله ـ ح٩٨ ـ (٢٥٢٦)، ٩٩ ص ٢٣٦.

- عون المعبود شرح سنن أبي داود، م٧، ج١٣، كتـاب الأدب ـ باب في ذي الوجهين ـ ح٤٨٦٢، ٤٨٦٣، ص١٥٠.

- تحفة الأحوذي بشرح جـامع الترمذي، ج٦، أبواب البر والصلة ــ باب ما جاء في ذي الوجهين ـ ح٢٠٩٤، ص١٤٤.

- شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، ج٤، كتاب الجامع ـ باب ما جاء في إضاعة المال وذي الوجهين ـ ح١٩٣٠، ص٥٢٨.

- مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج٢ ص٢٤٥ ح٧٣٦٠، ص٣٠٧ ح٨٠٨٩، ص٣٣٦ ح٨٤٥٩، ص٤٥٥ ح٩٨٧٩، ص٤٦٥ ح١٠٠١٠، ص٤٩٥ ح١٠٤٣٨، ص٥١٧ ح١٠٧١١، ص٥٢٥ ح١٠٨٠١.

- المعاني اللغوية:

يقال «رجلٌ ذو وجهين» إذ أظهر خلاف ما في قلبه.

شرار الناس: شرار بصيغة الجمع، وفي رواية لأبي هريرة رضي الله عنه: تجدون شر الناس. ومن رواية ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عنه بلفظ: وتجدون من شر الناس ذا الوجهين. ومن طريق أبي شهاب عن الأعمش: من شر خلق الله ذو الوجهين.

ووصفه بهذه الكلمات مبالغة في ذلك.

الحديث يشير إلى بعض صفات المنافقين وكانت حركة النفاق من أخطر الحركات التي واجهت مسيرة الدعوة الإسلامية، وكانت ولا زالت تواجه في كل زمان ومكان، ولذلك حمل القرآن حملة عنيفة على أخلاق المنافقين وأكاذيبهم ودسائسهم ومناوراتهم وما في نفوسهم من البغض والكيد للمسلمين ومن اللؤم والجبن وانطماس البصائر والقلوب والسعي لبذر النفاق والشقاق في الصف الإسلامي ولذلك سماهم الرسول «شر الناس»، وقال: «وتجدون شر الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه ويأتي هؤلاء بوجه». وهي من أبرز صفات النفاق والمنافقين، ولذلك حذر القرآن المسلمين من كل ما يلتصق بالمنافقين من الصفات، ولو من بعيد. وأدنى درجات النفاق عدم التجرد لله والغفلة عن ذكره اشتغالاً بالأموال والأولاد والتقاعس عن البذل في سبيل الله والتثاقل عن الذهاب إلى المسجد؛ قال تعالى ﴿**ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون**﴾(١).

(١) سورة التوبة: ٥٤.

واتخذ النفاق شكل الحركة السرية الخطيرة، وقد أخذت من جهد المسلمين ووقتهم وطاقاتهم قدرًا كبيرًا. وخصص القرآن سورة خاصة بهم تبدأ بوصف طريقتهم في مداراة ما في قلوبهم من الكفر وإعلانهم الإسلام والشهادة بأن النبي ﷺ هو رسول الله يحلفون على ذلك حلف الكاذب ليصدقهم المسلمون؛ قال تعالى: ﴿**إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون * اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون**﴾[1].

فهم كانوا يجيئون إلى رسول الله ﷺ فيشهدون بين يديه برسالته شهادة باللسان، لا يقصدون بها وجه الحق، إنما يقولون بالتقية وليخفوا حقيقتهم عن المسلمين. والآية تصور بعض معاني قوله ﷺ: «وتجدون شر الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه. ولما كان المنافقون بهذه الصفات فإنهم خطيرون، لذلك كانت معرفتهم من أهم ما ينبغي أن يحصله المسلم حتى لا يعطيهم ولاءه، فيضلونه عن صراط الله، ويفصلوه عن جسم المسلمين ويشككوه في دينه ونبيه. ولذلك وصفهم القرآن بأوصاف متعددة قال تعالى: ﴿**ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنَّهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم**﴾[2]. فأقوالهم وأفعالهم هي التي تحدد لنا هويتهم. وقد أكثر الله تعالى من وصف أقوالهم وتبيان معالمهم بكلمات واضحة تدعو إلى التأمل وفي بعض الأحيان إلى السخرية ﴿**وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خُشُبٌ مسنَّدة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنّى يؤفكون**﴾[3]. فهم أجسام تعجب وكلمات تقال وأجسام معجبة للعيون

(١) سورة المنافقون: ١، ٢.
(٢) محمد ٣٠.
(٣) المنافقون: ٤.

وأما حين ينطقون فهم خواء من كل معنى ومن كل حسن ﴿**تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة**﴾ بلا روح ولا إيمان ولا إخلاص يصورهم القرآن بهذه الصورة المثيرة لينتبه المؤمن إلى تحركاتهم ودسائسهم وهم بهذا وذاك يمثلون العدو الأول لله ولرسوله وللمسلمين ﴿**هم العدو فاحذرهم**﴾ هم العدو الحقيقي، العدو الكامن داخل المعسكر المختبئ في الصف، وهم أخطر من العدو الخارجي الصريح، فاحذرهم. وهاك آية أخرى قال تعالى: ﴿**وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون**﴾[1].

وتتوارد الآيات تصفهم بأوصاف جلية واضحة قال تعالى: ﴿**وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون * الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون * أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين**﴾[2].

الآيات تتحدث عن أنماط من أقوالهم وسلوكهم فهم لا يتمسكون بكتاب الله حتى يكونوا مصلحين، بل يفسدون في الأرض.

ثم هم مع أهل الإيمان يظهرون الإيمان، بل يحلفون بأنهم يؤمنون بالله وبالإسلام، وحينما يجتمعون مع رؤساء الضلال والكافرين يقولون لهم إننا نضحك على أولئك بكلامنا وهنا ندرك إعجاز معاني كلمات النبوة وأبعادها «وتجدون شر الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه ويأتي هؤلاء بوجه».

وقد نجد هذه المعاني في العصور المختلفة في القادة والزعماء الذين يتظاهرون بالإسلام لكسب الأصوات كما نجدها في أتباعهم. وشبيه بهذه الآيات آيات سورة النور ﴿**ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد**

(١) البقرة: ١١.
(٢) البقرة: ١٦.

ذلك وما أولئك بالمؤمنين * وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون﴾[1]. ومن أبرز صفاتهم أيضًا **﴿هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا﴾**[2]. وهي خطة التجويع التي يبدو أن خصوم الحق والإيمان يتواصون بها على اختلاف العصور والأزمان في حرب العقيدة ومناهضة الأديان ويقفون في طريق كل مشروع خيري كأنهم يقولون «لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا». وصدق نبي الهدى ﷺ عندما وصفهم «شر الناس ذا الوجهين». وقال القرطبي: «إنما كان ذو الوجهين شر الناس لأن حاله حال المنافق؛ إذ إنه متعلق بالباطل وبالكذب مدخل للفساد بين الناس. وقال النووي: هو الذي يأتي كل طائفة بما يرضيها، فيظهر أنه منها ومخالف لضدها وصنيعه نفاق ومحض كذب وخداع وتحيل للاطلاع على أسرار الطائفتين وهي مداهنة محرمة. قال: فأما من يقصد بذلك الإصلاح بين الطائفتين فهو محمود. وقال غيره: الفرق بينهما أن المذموم من يزين لكل طائفة عملها ويقبحه عند الأخرى ويذم كل طائفة عند الأخرى، والمحمود أن يأتي لكل طائفة بكلام فيه صلاح الأخرى ويعتذر لكل واحدة عن الأخرى، وينقل إليهم ما أمكنه من الجميل ويستر القبيح[3].

- فقه الحديث:

قال بعضهم: هذا ليس فيما طريقه الإصلاح والخير، بل في الباطل والكذب، وتزيينه لكل طائفة عملها وتقبيحه عند الأخرى وذم كل واحدة عند الأخرى، وهي مداهنة محرمة، بخلاف الإصلاح المرغّب فيه، وأن يأتي كل

---

(١) النور: ٤٧، ٤٨.

(٢) المنافقون: ٢.

(٣) فتح الباري، ج١١، كتاب الأدب، باب ما قيل في ذي الوجهين، ص ٤٧٥.

طائفة بكلام فيه صلاح للأخرى، ويعتذر لكل واحدة عن الأخرى وينقل لها الجميل[1].

- ما يستفاد من الحديث:

لقد كانت مواقف المنافقين ومكايدهم بعيدة المدى والأثر على ما تلهم الآيات المدنية حتى لكأنه نضال قوي يكاد يقترب بما كان من نضال بين النبي ﷺ وزعماء مكة، وإن اختلفت الأدوار والنتائج.

ولذلك شدد النبي ﷺ وحذر المسلمين منهم، فقال ــ عن أبي هريرة - بلفظ: «لا ينبغي لذي وجهين أن يكون أمينًا». وأخرج أبو داود من حديث عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان له وجهان في الدنيا كان له يوم القيامة لسانان من نار»[2].

---

(١) مختصر سنن أبي داود، للمنذري، تهذيب ابن القيم، ج٧ ص٢١١، كتاب الأدب، باب ذي الوجهين.

(٢) فتح الباري، ج١١، كتاب الأدب، باب ما قيل في ذي الوجهين، ص٤٥٧.

obeikandl.com

مداراة من يتقى فحشه

حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا سفيان عن ابن المنكدر حدثه عن عروة بن الزبير «**أن عائشة أخبرته أنه استأذن على النبي ﷺ رجل فقال: ائذنوا له، فبئس ابن العشيرة ــ أو بئس أخو العشيرة ــ فلما دخل ألان له الكلام. فقلتُ له: يا رسول الله، قلتَ ما قلتَ، ثم ألنت له في القول؟ فقال: أي عائشة، إن شر الناس منزلة عند الله من تركه ـ أو ودعه ـ الناسُ اتقاء فُحشه**».

- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج١٠، كتاب الأدب ـ باب ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والرِّيب. ح٦٠٥٤ ص٤٨٦، باب المداراة مع الناس. ح٦١٣١ ص٥٤٤.

- صحيح مسلم بشرح النووي، ج١٦، كتاب البر والصلة والآداب ـ باب مداراة من يتقى فحشه، ح٧٣ ـ (٢٥٩١) ص٢١٧.

- عون المعبود شرح سنن أبي داود، م٧ ج١٣، كتاب الأدب ـ باب في حسن العشرة ـ ح٤٧٨١ ص١٠٢.

- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، ج٦، أبواب البر والصلة ـ باب ما جاء في المداراة ـ ح٢٠٦٤ ص١١٢.

- مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج٦ ص٣٨. ح٢٤١٦١.

(وأشار المصنف بالترجمة إلى ما ورد فيه على غير شرطه واقتصر على إيراد ما يؤدي معناه، فمما ورد فيه صريحا حديث لجابر عن النبي ﷺ قال: «مداراة

الناس صدقة». أخرجه ابن عدي والطبراني في الأوسط، وفي سنده يوسف بن محمد بن المنكدر ضعفوه. وقال ابن عدى: أرجو أنه لا بأس به. وأخرجه ابن أبي عاصم في «آداب الحكماء» بسند أحسن منه، وحديث أبي هريرة «رأس العقل بعد الإيمان بالله مداراة الناس». أخرجه البزار بسند ضعيف)[1].

- المعاني اللغوية:

قال الطيبي: العشيرة: القبيلة. أي بئس هذا الرجل من هذه العشيرة، كما يقال: يا أخا العرب لرجل منهم.

«من تركه الناس اتقاء فحشه» يعني مداراة. قال ابن بطال: المداراة من أخلاق المؤمنين، وهي خفض الجناح للناس ولين الكلمة وترك الإغلاظ لهم في القول، وذلك من أقوى أسباب الألفة. وظن بعضهم أن المداراة هي المداهنة فغلط، لأن المداراة مندوب إليها والمداهنة محرمة، والفرق أن المداهنة من الدَّهانة وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه. وفسرها العلماء بأنها معاشرة الفاسق وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه. والمداراة هي الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه، حيث لا يُظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل، ولا سيما إذا احتيج إلى تألفه، كما هو في مناسبة الحديث المذكور.

- الراوي:

عائشة أم المؤمنين، بنت الإمام الصديق الأكبر، خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر عبد الله بن أبي قحافة بن كعب بن لؤى القرشية التيمية المكية النبوية أم المؤمنين زوجة النبي ﷺ، أفقه نساء الأمة على الإطلاق.

---

(١) فتح الباري، شرح صحيح البخاري، ج١٠ ص٥٢٨.

وأمها هي أم رومان بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عتاب بن أذينة الكنانية. هاجر بعائشة أبواها، وتزوجها نبي الله قبل مهاجره بعد وفاة الصديقة خديجة بنت خويلد، وذلك قبل الهجرة ببضعة عشر شهرًا، ودخل بها في شوال سنة اثنتين، منصرفه من غزوة بدر وهي ابنة تسع.

روت عنه علمًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، وعن أبيها وعن عمر وسعد وحمزة بن عمرو الأسلمي وحدث عنها إبراهيم بن زيد النخعي مرسلاً وإبراهيم بن يزيد التميمي كذلك وإسحاق بن طلحة وخلق كثير.

ومسند عائشة يبلغ ألفين ومائتين وعشرة أحاديث، اتفق لها البخاري ومسلم على مائة وأربعة وسبعين حديثًا، وانفرد البخاري بأربع وخمسين، وانفرد مسلم بتسعة وستين.

وعائشة ممن ولد في الإسلام، وهي أصغر من فاطمة بثماني سنوات، وكانت تقول: لم أعقل أبوي إلا وهما يدينان الدين.

وهذه دلائل تشير إلى أن الله تعالى خصها بالعناية الربانية فنشأت وترعرعت بين أحضان النبوة والوحي، وفي بيت عريق وتحت إشراف الأبوين السباقين إلى الخير، وخص الله تعالى أباها أبا بكر بذكره في القرآن ﴿**إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا**﴾. وكأن العناية الربانية تهيئها لتكون زوجة كريمة لنبي الرحمة، ولتكون مدرسة ومربية للأمة.

هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «أريتك في المنام ثلاث ليال، جاء بك الملك في سرقة (من حرير) فيقول: هذه امرأتك. فأكشف عن وجهك فإذا أنت فيه فأقول إن يك هذا من عند الله يمضه».

هذه الإشارات تدل على أنها ظلت تحت إشراف النبوة تتلقى الجرعات

التربوية من أبيها مباشرة ومن نبي الهدى بالزيارة اليومية لبيتها، فتنتبه وتلاحظ، وتتشبع بالمفاهيم الإسلامية والقيم الخلقية العالية، فامتازت عن غيرها من زميلاتها بأشياء كثيرة. عن علي بن زيد بن جدعان عن جدته عن عائشة أنها قالت: «لقد أعطيت تسعًا ما أعطيتها امرأة بعد مريم بنت عمران. لقد نزل جبريل بصورتي في راحته حتى أمر رسول الله ﷺ أن يتزوجني ولقد تزوجني بكرًا وما تزوج بكرًا غيري، ولقد قبض ورأسه في حجري، ولقد قبرته في بيتي، ولقد صفت الملائكة ببيتي، وإن كان الوحي لينزل عليه وإني لمعه في لحافه، وإني لابنة خليفته وصديقه، ولقد نزل عذري من السماء، ولقد خلقت طيبة عند طيب، ولقد وعدت مغفرة ورزقًا كريمًا».

هذه عائشة أم المؤمنين تتحدث عن نفسها، وبما خصها الله تعالى بمميزات لتكون زوجة مثالية، وأسوة نبوية يحتذى بها، ومدرسة وفقيهة تنشر علمها.

وحبه ﷺ لعائشة كان أمرًا مستفيضًا، وكان الصحابة يتحرون بهداياهم يومها تقربًا إلى مرضاته. عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: «كان الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة قالت: فاجتمعت صواحبي إلى أم سلمة فقلن لها: إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة وإنا نريد الخير كما تريده عائشة فقولي لرسول الله ﷺ يأمر الناس أن يهدوا له أينما كان. فذكرت أم سلمة له ذلك، فسكت فلم يرد عليها، فعادت الثانية، فلم يرد عليها، فلما كانت الثالثة قال: يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة فإنه والله ما نزل عليّ الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها». وهذا الجواب منه دال على أن فضل عائشة على سائر أمهات المؤمنين بأمر إلهي وراء حبه لها، وأن ذلك الأمر من أسباب حبه لها.

وليس كما يفهمه أعداء الإسلام من الأسباب المادية، وإنما لتكون أسوة مباركة وتطبيقًا حيا لقوله تعالى: ﴿**وجعل بينكم مودة ورحمة**﴾... إلخ. ولقوله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي».

وقضت - رضي الله تعالى عنها - حياة حافلة بالعلم والكرم وبالعبادة والمجاهدة، والجمع بين الدين والحياة الاجتماعية ولها مواقف مشهودة تدل على وعيها وتبحرها العلمي في الحديث والفقه والفرائض، جاء ابن عباس - رضي الله عنهما - يستأذن على عائشة وهي في الموت قالت: إيهًا يا ابن عباس! قال: كنتِ أحَبَّ نساء رسول الله ﷺ - يعني إليه - ولم يكن يحب إلا طيبا، سقطت قلادتك ليلة الأبواء فأنزل الله تعالى ﴿**فتيمموا صعيدًا طيبًا**﴾ [النساء: ٤٢] فكان ذلك من سببك وما أنزل الله بهذه الأمة من الرخصة، ثم أنزل الله تعالى براءتك من فوق سبع سموات فأصبح ليس مسجد من مساجد يذكر فيها الله إلا براءتك تتلى فيه آناء الليل والنهار. قالت: دعني عنك يا ابن عباس، ووالله لوددت أني كنت نسيًا منسيًّا. عن قيس قال: قالت عائشة، وكانت تحدث نفسها أن تدفن في بيتها، فقالت: إني أحدثت بعد رسول الله ﷺ حدثًا ادفنوني مع أزواجه، فدفنت بالبقيع، رضي الله عنها. تعني بالحدث (سيرها يوم الجمل) فإنها ندمت ندامة كلية وتابت من ذلك. على أنها ما فعلت ذلك إلا متأولة قاصدة للخير. وتوفيت - رضي الله تعالى عنها - سنة سبع وخمسين، ومدة عمرها ثلاث وستون سنة وأشهر(١).

- المعنى العام:

لقد أولى الإسلام عنايته الكبيرة بالنواحي الخلقية وبالرفق واللين وتطييب الخاطر والمداراة والمجاملات المباحة؛ لأنها من وسائل الدعوة. ووصف الله تعالى نبيه ﷺ بقوله: ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾(٢). ودلالة هذه الكلمة العظيمة على عظمة محمد ﷺ تبرز من نواحٍ شتى، تبرز من كونها من الله الكبير وتتردد في الملأ الأعلى إلى ما شاء الله، وتبرز من جانب آخر من جانب

(١) راجع سير أعلام النبلاء ج٢ ص١٣٥ ـ ٢٠١ باختصار وتصرف.
(٢) سورة القلم: ٤.

إطـاقـة محمـد ﷺ لتلقيها وهو يعلم من ربه هذا ويعلم ما دلالة كلماته؟ وما مداها؟ وما صـداها؟ ويعلم مدى فعاليتها في مجال الدعـوة. ومن هذه المعاني الرفق والـرحمة والخلق الحسن، وكان ﷺ حـريصًا على أن يربي أصحـابه على هذه المفاهيم. حدثنـا عمرو بن دينار عن ابن أبي مليكة عن يعلى بن مُلَك عن أم الـدرداء عن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قـال: «ما شيء أثقل في ميـزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن فإن الله تعالى ليبغض الفاحش البذيء»(١).

وكان الصحابة والسلف الصالح يتربون على هذه المفاهيم النبيلة ويدركون أبعادهـا وفوائدهـا في مجال التربية والتعليم. حدثنـا أحمد بن عبده أخبرنـا أبو وهب عن عبد الله بن المبـارك أنه وصف حسن الخلق فقال: هو بسط الـوجه وبذل المعروف وكف الأذى.

والـدارس للقـرآن والحديث يـدرك بوضـوح أن العنصر الأخـلاقي بـارز وأصيل في هذا الدين وفي هذه العقيدة الصافيـة. ومن أبرز مميزات هذا الدين أيضًـا الدعـوة إلى الطهارة والنظـافة والصـدق والعدل والـرحمة والبر وحفظ العهـد والنهي عـن الجور والظلم والخداع والغش وكل مـا ينفـر النـاس من الدعوة. ومن هنا كانت المدارة والمجاملة مباحة في بعض الأحيان ومطلوبة في أحيان أخرى كما نرى في هذا الحديث.

والرسول ﷺ يقول: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». فيلخص رسالته في هذا الهدف النبيل. وتتوارد أحاديثه في الحض على كل خلق كريم.

---

(١) تحفة الأحوذي، م٦، باب ما جاء في حسن الخلق، ص١٤١.

- الرواي:

عروة بن الـزبير ابن حواري رسول الله ﷺ والزبير ابن عمتـه صفية، وهو الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزي بن قصي بن كلاب.

عـالم المدينـة أبـو عبـد الله القـرشي الأسـدي المدني الفقيـه، أحـد الفقهـاء السبعة، ولد سنة ثلاث وعشرين في أرجح الأقوال.

- قصة تفقهه وسبب تبحره العلمي:

ارتوى - رضي الله تعالى عنه - من مناهل كبار الصحابة، فحدث عن أبيه بشيء يسير لصغـره، وعن أمه أسماء بنت أبي بكـر الصـديق، وعن خالتـه أم المؤمنين عائشـة، ولازمها وتفقه بها. وعن سعيد بن زيـد وعلي بن أبي طالب وسهل بن أبي حثمة وجـابر والحسن والحسين ومحمـد بن مسلمة وأبي هـريرة وابن عباس وزيد بن ثابت وأبي أيوب الأنصاري والمغيرة بن شعبة وأسامة بن زيد ومعاويـة وعمرو بن العاص وابن عبد الله بن عمـرو وأم هانئ وقيس بن سعد بن عبادة وحكيم ابن حزام وخلق سواهم.

هنـاك رواية تـدل على النشاط العلمي وحماس التـابعين وانـدفاعهم نحـو العلم والعلماء، وعلى رأسهم عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنه. ويروى عن الزهري عن قبيصة بن الزبير قال: كنا في خلافة معاوية وإلى آخرها نجتمع في حلقة في المسجد بالليل أنا ومصعب وعروة بـن الزبير وأبو بكر بن عبدالرحمن وعبد الملك ابن مروان وعبد الرحمن المسور وإبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف وعبيد الله بن عبد الله بن عتبـة وكنا نتفرق بالنهار، فكنت أنـا أجالس زيد بن ثابت وهـو مترئس بالمدينـة في القضاء والفتـوى والقراءة والفـرائض في عهد عمر وعثمان وعلي، ثم كنت أنا وأبـو بكر بن عبد الرحمن نجالس أبـا هريرة، وكان عروة يغلبنا بدخوله على عائشة.

ولذلك يتحدث عنه الزهري قائلاً: رأيت عروة بحرًا لا تكدره الدلاء. قال أبو الزناد: فقهاء المدينة أربعة: سعيد وعروة وقبيصة وعبد الملك بن مروان. وكان يقرأ ربع القرآن كل يوم في المصحف نظرًا ويقوم به الليل فما تركه إلا ليلة قطعت رجله. قال الزبير: توفي عروة وهو ابن سبع وستين سنة. وقال ابن المديني: مات عروة سنة ثلاث وتسعين رحمه الله رحمة واسعة(١).

حدثنا محمود بن غيلان أخبرنا أبو داود أنبأنا شعبة عن أبي إسحاق قال: سمعت أبا عبد الله الجدلي يقول: سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: «لم يكن فاحشًا ولا متفحشًا ولا صخابًا في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح»(٢).

هذه الصفات والأخلاق النبوية هي الأسوة الحسنة لأمته ﷺ فهي أخلاقيات لم تنبع من البيئة ولا من اعتبارات أرضية إنما تستمد من القرآن ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ ليحققها البشر في حدود الطاقة كي يحققوا إنسانيتهم العليا، وكي يصبحوا أهلاً لتكريم الله لهم واستخلافهم في الأرض، ثم إنها ليست فضائل مفردة، صدق وأمانة ورحمة وبر وخلق ولين ومجاملة ومداراة، إنما هي منهج متكامل فيه التربية الشاملة. وقد تمثلت هذه الأخلاقيات الإسلامية بكمالها وجمالها في حياة الرسول ﷺ وتعامله. وهذا الحديث الذي نحن بصدده خير تمثيل لهذه الأخلاقيات.

- مناسبة الحديث:

قوله: «أنه استأذن على النبي ﷺ رجل فقال: ائذنوا له فلبئس ابن العشيرة - أو بئس أخو العشيرة - فلما دخل ألان له القول... إلخ» قال القاضي

(١) سير أعلام النبلاء، ج٤ ص٤٢١ ـ ٤٣٧.

(٢) تحفة الأحوذي ج٦، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في خلق النبي ﷺ، ص١٥٧، ١٥٨.

عياض: هـذا الرجل هو عيينـة بن حصن، ولم يكن أسلم حينئذ وإن كـان قد أظهر الإسـلام، فأراد النبي ﷺ أن يبين حالـه ليعرفه النـاس، ولا يغتر به من لم يعـرف حـاله. قـال: وكـان منـه في حياة النبي ﷺ وبعـده مـا دل على ضعف إيمانه، وارتـد مع المرتدين وجـيء به أسيرًا إلى أبي بكر رضي الله عنـه. ووصف النبي ﷺ له بأنه بئس أخو العشيرة من أعـلام النبوة لأنه ظهر كما وصف. وإنما ألان له القول تألفًـا له ولأمثاله على الإسـلام. وفي هذا الحديث مداراة من يُتقى فحشـه وجواز غيبـة الفاسق ومن يحتـاج الناس إلى التحـذير منـه. ولم يمدحـه النبي ﷺ ولا ذكر أنه أثنى عليه في وجهه ولا في قفـاه، إنما تألفه بشيء من الدنيا مع لين الكلام. وأما بئس ابن العشيرة أو رجل العشيرة فـالمراد بالعشيرة قبيلته، أي بئس هذا الرجل منها[1].

«إن من شر الناس»، وفي رواية «إن شر الناس منزلـة عند الله يوم القيامة من تركـه الناس» أي ترك النـاس التعرض لـه «أو ودعه» «اتقاء فحشـه»، وفي رواية «اتقاء شره»، أي كي لا يؤذيهم بلسانه.

وقد جمع هذا الحديث كما قـال الخطابي علمًا وأدبًا وليس قولـه عليه السلام في أمته بـالأمور التي يسهم بها ويضيفها إليهم من المكروه غيبـة، وإنما يكون ذلك من بعضهم في بعض، إنما يـريـد ﷺ أن يبين ذلك ويفصح بـه ويعرف النـاس أمـورهم فإن ذلك من باب النصيحـة والشفقة على الأمـة، ولكنه لما جبل عليـه من الكرم وأعطيه من حسن الخلق أظهر له البشاشة ولم يحبه بالمكروه ولتقتدي به أمته في اتقاء شر من هذا سبيله، وفي مداراته ليسلموا من شره وغائلته[2].

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب البر والصلة، باب مداراة من يتقى فحشه، ج١٦ ص١٤٤.
(٢) تحفة الأحوذي، م٦، باب ما جاء في المداراة، ص١٣٣.

وشرح ابن بطال الحديث على أن المذكور كان منافقًا، وأن النبي ﷺ كان مأموراً بالحكم بما ظهر لا بما يعلمه في نفس الأمر(١).

هذه لفتات تربوية تشير إلى الأسوة الحسنة التي امتازت بها شخصية نبينا محمد ﷺ - وحده - هو الذي يرقى إلى هذا الأفق من الخلق العظيم، إنه محمد - ثم وحده - هو الذي يبلغ قمة الخلق الإنساني وهو الذي يكافئ هذه الرسالة الربانية حتى لتتمثل في شخصه أسوة حية تمشي على الأرض في شخص إنسان وتتعامل على الواقع، والله أعلم حين يجعل رسالته. وهو الذي أعلن أنه على (خلق عظيم).

- فقه الحديث:

١ - تباح الغيبة في كل غرض صحيح شرعًا، حيث يتعين طريقًا إلى الوصول إليها بها كالتظلم والاستعانة على تغيير المنكر والاستفتاء والمحاكمة والتحذير من الشر، ويدخل فيه تجريح الرواة والشهود، وإعلام من له ولاية عامة بسيرة من هو تحت يده.

٢ - تجوز غيبة من يتجاهر بالفسق أو الظلم أو البدعة(٢).

٣ - في الحديث جواز مداراة من يُتقى فحشه وجواز غيبة الفاسق المعلن فسقه ومن يحتاج الناس إلى التحذير منه(٣).

٤ - قال القرطبي: فيه جواز غيبة المعلن بالفسق أو الفحش ونحو ذلك، مع جواز مداراتهم اتقاء شرهم ما لم يؤد ذلك إلى المداهنة(٤).

---

(١) فتح الباري، كتاب الأدب، باب الانبساط إلى الناس، ج١٠ ص٥٣٩.
(٢) فتح الباري: كتاب الأدب، باب ما يجوز من اغتياب أهل الفساد، ١٠/ ٤٧٢.
(٣) مسلم بشرح النووي، كتاب الأدب. باب مداراة من يتقى فحشه، ١٦/ ١٤٤.
(٤) تحفة الأحوذي، م٦، باب ما جاء في المداراة، ص١٣٣.

- ما يستفاد من الحديث :

١ - التحلي بالأخلاق الكريمة والسمات النبيلة من صفات المؤمن الحق .

٢ - حرص الرسول ﷺ على توجيه الأمة وغرس الفضائل فيها .

٣ - مداراة السفهاء لا تعني قبول الدنية فالفرق بين الحالين بعيد، الأولى ضبط النفس أمام أوامر لاستنفاذ منعها طوعًا أو كرهًا وأما الأخرى فهي بلادة النفس واستكانتها للهوى .

٤ - ومن الضمانات التي اتخذها الإسلام لصيانة الكلام عن النزق والهوى تحريمه الجدل وسده لأبوابه حقًا كان أم باطلاً؛ قال رسول الله ﷺ: «من ترك المراء وهو مبطل بني له بيت في ربض الجنة ومن تركها وهو محق بني له في وسطها، ومن حسن خلقه بني له في علاها» رواه أبو داود .

٥ - والحديث يشير إلى رخصة المداراة لرفع الضرر.

الحديث الثالث عشر: ستر المؤمن على نفسه

حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنا إبراهيم بن سعد عن ابن أخي ابن شهاب عن ابن شهاب عن سالم بن عبد الله قال: «سمعت أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **كل أمتي معافى إلا المجاهرين وإنَّ من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربه ويُصبح يكشف سِتْر الله عنه**»(١).

- المعاني اللغوية:

«كل أمتي معافى» بفتح الفاء مقصور، اسم مفعول من العافية، وهو إما بمعنى عفا الله عنه، وإما سلمه الله وسلم منه.

عافىٰ: معافاة وعفاءً وعافيةً الله فلانًا دفع عنه العلة والبلاء والسوء.

أعْفىٰ: الله فلانًا إعفاءً عافاه ــ والمريضُ: عوفي، عافاه من الأمر برَّأه. قوله «إلا المجاهرين» كذا في رواية مسلم، والإسماعيلي وأبي نعيم بالنصب وأجاز الكوفيون الرفع في الاستثناء المنقطع. وقال ابن مالك و(إلاّ) على هذا بمعنى لكن.

وقوله «وإن من المجاهرة» وفي رواية «الجهار» قال عياض: الجهار والإجهار والمجاهرة كله صواب بمعنى الظهور والإظهار.

قوله «البارحة» هي أقرب ليلة مضت من وقت القول.

---

(١) فتح الباري، م١٠ كتاب الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه، ص٤٨٦. وأخرجه مسلم ج١٨ في كتاب الزهد باب النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه باختلاف يسير، ففيه «كل أمتي معافاةٌ إلا المجاهرين، وإن من الإجهار أن يعمل العبد بالليل عملاً ثم يصبح قد ستره ربه...» ص١١٩.

- المعنى العام:

إن الله تعالى أكرم أمة محمد ﷺ بالخيرية وشرّفها بالسعادة والمعافاة الدائمة وخلق لهذه الأمة طيبات الحياة ليستمتع بها وليعيش الناس في سعادة وهناء وليعملوا في الأرض لتوفير معاني السعادة والمعافاة الدائمة فتنمو الحياة وتتجدد وتتحقق خلافة الإنسان في هذه الأرض، وحذّر ﷺ أمته من المعوقات والمطبات التي تقع في طريق تحقيق هذه المعاني، فقال: كل أمتي معافىً إلا المجاهرين.

وحذّر المجاهر من أن يظن أن مجاهرته بالمعصية تمهله؛ قال تعالى: ﴿**أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون**﴾(١). فلا يحسب مجاهر أنهُ مفلت ولا سابق، ومن يحسب هذا فقد ساء حكمه، وفسد تقديره واختل تصوره.

وفي قصة لوط تتبدّى المجاهرة بالرذيلة وسفورها بلا حياء ولا تحرُّج، وانحدار البشرية إلى الدرك الأسفل من الانحراف والشذوذ، وكان ذلك سبب هلاكهم ودمارهم؛ قال تعالى: ﴿**إنّا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون**﴾. ﴿**ولقد تركناها آية بينة لقوم يعقلون**﴾(٢).

﴿**فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود * مُسوَّمة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد**﴾(٣).

وفي ضوء هذه التجارب التي مرّت بها الأمم ومرّ بها الأنبياء أراد ﷺ أن يشدد النكير على المجاهرين بالمعصية لتبقى لهذه الأمة المحمدية خيريتها ووسطيتها

---

(١) سورة العنكبوت: ٤.

(٢) سورة العنكبوت: ٣٤ـ٣٥.

(٣) سورة هود: ٨٢ـ٨٣.

ولتكون شامة من بين الأمم تمتاز بسموها وشرفها وبتوازنها واعتدالها وبحيائها وشرفها، فإذا انزلق قدم المؤمن وارتكب معصية فعلاجه في كتاب الله تعالى ﴿**أقم الصلاة طرفي النهار وزلفًا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات**﴾(١). وإذا أخطأ الطريق مرة أخرى ووقع في المعصية فيستغفر ويتوب ويلتزم الصمت والكتمان، قال ﷺ: «إذا بُليتم فاستتروا».

أما الإنسان الذي يقوم بمعصية الله تعالى في وضح النهار وعلى مرأى من الناس لا يقيم وزنًا للعادات والتقاليد الإسلامية، ويهتك الحرمات؛ ولا يمنعه حياؤُه وإيمانه من ارتكاب الحرام فذلك المجاهر بالمعصية، فيكون الذي يُظهر المعصية قد ارتكب محظورين: إظهار المعصية وتلبُّسه بفعل المُجَّان، فلا بد أن تقف الحكومة الإسلامية موقفًا شرعيًّا لاتخاذ الإجراءات للحد من انتشار الفاحشة والإعلان بالجهر بها، ولذلك شُرعت الحدود والتعازير من رجمٍ وجلد وسجن وتغريب؛ لتبقى البيئة الإسلامية سليمة معافاة من كل عيب وعار وشنار

وورد في الأمر بالستر حديث ليس على شرط البخاري وهو حديث ابن عمر رفعه «اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله عنها، فمن ألم بشيء منها فليستتر بستر الله». الحديث أخرجه الحاكم وهو في «الموطأ» من مرسل زيد بن أسلم. قال ابن بطال: في الجهر بالمعصية استخفاف بحق الله ورسوله وبصالحي المؤمنين، وفيه ضرب من العناد لهم، وفي الستر بها السلامة من الاستخفاف؛ لأن المعاصي تذل أهلها، ومن إقامة الحد عليه إن كان فيه حد، ومن التعزير إن لم يوجب حدًّا، وإذا تمحض حق الله فهو أكرم الأكرمين ورحمته سبقت

---

(١) سورة هود: ١١٤.

غضبه، فلذلك إذا ستره في الدنيا لم يفضحه في الآخرة، والذي يجاهر يفوته جميع ذلك[1].

- فقه الحديث:

١ - إن الذي يجاهر بالمعصية يكون من جملة «المجان»، والمجانة مذمومة شرعًا وعرفًا، فيكون الذي يظهر المعصية قد ارتكب محظورين: إظهار المعصية وتلبسه بفعل المجان.

٢ - والمجاهر الذي أظهر معصيته وكشف ما ستر الله عليه قال عنه النووي «أن من جاهر نفسه أو بدعته جاز ذكره بما جاهر به دون ما لم يجاهر به[1].

- ما يستفاد بالحديث:

١ - الحديث يشدد النكير على المجاهرين بالمعاصي والذين يكشفون ما ستر الله تعالى عليهم فيتحدثون بها لغير ضرورة ولا حاجة، وهو دليل ضعف الإيمان وقلة الحياة، ولأن المجاهر يكون خطرًا على البيئة الإسلامية الطاهرة.

٢ - الحديث يعالج بقايا رواسب الجاهلية والعادات القديمة، من الجهر بالمعاصي وارتكاب الفواحش والافتخار بالمنكرات ويسمو بالمؤمن إلى الأفق السامي ويدربه على الاستحياء والعفاف.

---

(١) فتح الباري، م١٠، كتاب الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه، ص٤٨٧.

الحديث الرابع عشر: النهي عن العقوق وكثرة السؤال

حدثنا سعد بن حفص حدثنا شيبان عن منصور عن المسيَّب عن ورادٍ عن المغيرة بن شعبة عن النبي ﷺ قال: «**إن الله حرَّم عليكم عقوق الأمهات، ومنعًا وهات، ووأدَ البنات، وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال، وإضاعة المال**».

- تخريج الحديث

رواه البخاري، كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر.

رواه مسلم، كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة.

- الأبحاث العربية:

(العُقوق) مشتق من العق وهذا القطْع والمراد به صدور ما يتأذى به الوالد من ولده من قول أو فعل. مصدر عقّ إذا عصى وأساء المعاملة.

(الأمهات) جمع (أمّه) وهي خاصة بمن يعقل، ويقال (أمّاه) قال تعالى: ﴿**وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم**﴾.

وأما لفظ (الأم) فإنه يشمل من يعقل ومن لا يعقل.

(منعا وهات): أي يمنع ما وجب عليه من حق للغير كالزكاة والنفقة على الزوجة والأولاد، ويطلب ما لا حق له فيه. وفيها طباق.

قال الخليل: أصل (هات) آت فقلبت الألف هاء. والحاصل من النهي منْع ما أُمر من إعطائه وطلب ما لا يستحق أخذه، ويحتمل أن يكون النهي عن السؤال مطلقًا.

(وأْد البنات) هو دفن البنات على قيد الحياة، وكان أهل الجاهلية يفعلون ذلك كراهة فيهن، وكان جد الفرزدق همام بن غالب بن صعصعة أوّل من فدى

الموءودة. ولذلك يشير الفرزدق:

وجدي الذي منع الوائدا ت وأحيا الوئيد فلم يُوأد

(قيل وقال) قال الجوهري: اسمان، يقال: كثير القيل والقال. والمراد في الحديث الإشارة إلى كراهة كثرة الكلام، لأنها تؤول إلى الخطأ، وقال: وإنما كرره للمبالغة في الزجر عنه.

في عقوق الأمهات، ومنعًا وهات، ووأد البنات فيها من المحسنات البديعية ما يسمى بالسجع، ومثله قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال.

(منعًا) قال ابن مالك في التوضيح: إنه من المكتوب على لغة ربيعة، ومنع بحذف الألف على لغتهم لأنهم يقفون على المنوّن المنصوب بالسكون فلا يكتبون الألف. وقيل حذفها لأن تنوين منعًا أبدل واوا وأدغم في الواو فصار اللفظ: يعني بعد قلبها واوًا مشددة كاللفظ بقول وشبهه، فجعلت صورة الخط مطابقة للفظه. ويمكن أن يكون الأصل ومنع حق فحذف المضاف وبقيت هيئة الإضافة.

- الرواي:

المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود بن معتب الأمير أبو عيسى، ويقال: أبو عبد الله، وقيل أبو محمد.

من كبار الصحابة أولي الشجاعة والمكيدة، شهد بيعة الرضوان، كان رجلاً طوالاً مهيبًا ذهبت عينه يوم اليرموك. وقيل يوم القادسية. قال ابن سعد: كان المغيرة أصهب الشعر جدًّا يفرق رأسه فروقًا أربعة، أقلص الشفتين مهتومًا، ضخم الهامة، عبل الذراعين، بعيد ما بين المنكبين، وكان داهية يقال له المغيرة الرائي.

وعن الشعبي أن المغيرة سار من دمشق إلى الكوفة خمسًا.

معمر، عن الزهري قال: كان دهاة الناس في الفتنة خمسًا، فمن قريش عمرو ومعاوية، ومن الأنصار قيس بن سعد، ومن ثقيف المغيرة، ومن المهاجرين عبد الله بن بديل بن ورقاء الخُزاعي، فكان مع علي قيس وابن بديل، واعتزل المغيرة بن شعبة.

أسلم - رضي الله تعالى عنه - قبل صلح الحديبية وأقام مع النبي ﷺ حتى اعتمر عمرة الحديبية. يقول رضي الله تعالى عنه: فكانت أول سفرة خرجت معه فيها وكنت أكون مع الصديق وألزم رسول الله ﷺ فيمن يلزمه ويتتبع خطواته ويسجل سننه في قلبه وذهنه. حدثنا يونس بن مسيرة سمع أبا إدريس قال: قدم المغيرة بن شعبة دمشق فسألته فقال: وضأت رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فمسح على خفيه. والرواية تدل على أنه - رضي الله تعالى عنه - رغم قلة مدته ومكثه مع الرسول ﷺ كان حريصًا على الاستفادة منه ونشر سنته وعمله.

ومن مميزاته - رضي الله تعالى عنه - أنه افتتح في عصره وتحت إمارته أذربيجان وهمذان. وقال الليث رضي الله عنه: إنه حج بالناس سنة أربعين. وكان أميرًا على الكوفة. توفي رضي الله تعالى عنه في سنة خمسين في شعبان وله سبعون سنة.

وله في الصحيحين اثنا عشر حديثًا، وانفرد له البخاري بحديث، ومسلم بحديثين[1].

- المعنى العام:

الحديث يرسم شخصية المسلم في أفقه الأعلى، أفق الإسلام والقرآن وفي

(١) راجع سير أعلام النبلاء ج٣ ص٢١ ـ ٣٢.

ضـوء أسوة خير خلق الله الـذي أدّبـه ربه فأحسن تأديبـه، والـذي شهد لـه في كتابه قائلاً ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ وكان ﷺ حريصًا غـاية الحرص أن يربي أمتـه على هـذا الخلق العظيم، يـربي جماعتـه على أسـاس من الفضيلـة والخلق القويم، ولهذا نجـد في هذا الحديث سمـو الغاية ونبل الـدعوة وقـدسية الهدف الذي يسعى إليه الإسلام بشتى الوسائل، وأبرزها احترام الأم وبر الوالدين؛ لأن المجتمع الإسلامي أكثـر ما يمتاز بـه بعد رابطة العقيـدة رابطة الأسرة، ومن ثم يربط السيـاق بعقوق الـوالدين ويعتبرها من الكبـائر، والكلمة النبـوية «إن الله حـرّم عليكم عقوق الأمهـات» موحيـة يستجيش التعبير وجدان البر والـرحمة في قلوب الأبنـاء؛ ذلك أن الحياة وهي مندفقة في طـريقها بالأحياء تـوجّه اهتمامهم القـوي إلى الأمام؛ لأن الحيـاة الماديـة قلما تـوجه اهتمامهـا إلى الأبـوة وإلى الجيل الذاهـب، الجيل الذي يشـوّه ديكور البيت ومن ثم تحتـاج البنوة إلى استجـاشة وجـدان المؤمن بقـوة، فاستخـدم نبي الهدى كلمـة «حرَّم» ثـم استخدم كلمـة «عقـوق» وعدَّه من الكبـائر. عن عبـد الله بن عمرو بن العـاص عن النبي ﷺ قال: «الكبائر: الإشراك بالله وعقوق الوالدين واليمين الغموس»(١).

وخصّ الأم بالـذكر وهو من تخصيص الشيء بـالذكر إظهارًا لعظيم مـوقعه، وإن كـان المعنى يشمل الأم والأب؛ لأن الـوالديـن يتحملان تكـاليف التربيـة ويندفعان بـالفطرة إلى رعاية الأولاد إلى التضحية بكل شيء حتى بـالذات، فأما الأولاد فسرعان مـا ينسون هذا كلـه ويندفعون بـدورهم إلى الزوجة وإلى الـذرية الجديدة القادمة، ويعطون الأولوية لهذه الأسرة الجديدة تدليلاً وتقديرًا واندفاعًا نحو معاني التكريم والاحتفاء والتضحيـة والفداء، ونظرًا لهذه الأمور يجيء الأمر بالإحسان إلى الوالدين في صـورة قضاء من الله يحمل معنى الأمر المؤكد ﴿**وقضى**

(١) فتح الباري، م١٠، كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر، ص٤٠٥.

ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانًا * إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريمًا واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرًا﴾[1].

﴿**إما يبلغن عندك الكبر**﴾ الكبر له جلاله، وله ظروفه ومتطلباته، وله حساسيته وشفافيته، فيجب أن يكون الابن مدركًا لهذه المعاني. والبر يتطلب أن لا يخاطب الابن البار الأبوين الكريمين إلا بكل معاني الرعاية والأدب وألا يند من الولد ما يدل على الضجر والضيق، وما يشير إلى الإهانة وسوء الأدب ﴿**وقل لهما قولا كريمًا**﴾ وهي أعلى مرتبة إيجابية أن يكون كلامه لهما يشير بالإكبار والاحترام ﴿**واخفض لهما جناح الذل من الرحمة**﴾ وهنا يشف التعبير ويلطف ويبلغ شغاف القلب وحنايا الوجدان، وأما الأمر الثاني الذي يرشد إليه الحديث أن تكون للمؤمن شخصيته المتميزة فيمتاز بالصمت والوقار وقلة الكلام وقلة السؤال وعدم الإلحاح وعدم الانشغال بالأمور التافهة، (ومنعًا وهات) أي يمنع ما وجب عليه من حق للغير ويطلب ما لا حق له فيه وإلى هذا تشير الآية الكريمة ﴿**ويمنعون الماعون**﴾، قال الحافظ: الحاصل من النهي منع ما أمر بإعطائه وطلبه ما لا يستحق. ويحتمل أن يكون النهي عن السؤال مطلقًا، ويكون ذُكِر هنا مع ضده[2].

ويقول الإمام النووي: وأما قوله «منعًا وهات» وفي رواية أخرى (ولا وهات) فهو بكسر التاء من هات، ومعنى الحديث أنه نهى أن يمنع الرجل ما توجب عليه من الحقوق، أو يطلب ما لا يستحقه[3].

---

(١) سورة الإسراء: ٢٣، ٢٤.

(٢) فتح الباري، م١٠، كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر، ص٤٠٧ ـ ٤٠٩.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي، ج١٢، كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة.

والحديث يبين الصفات والآداب العديدة التي يجب أن تتمتع بها الشخصية المؤمنة من معالي الأمور، ومعاني الفضيلة والابتعاد عن السفاسف ومفاهيم الرذيلة، فهناك تكاليف مالية وتكاليف اجتماعية وواجبات أسرية يجب أن يكون المؤمن سبّاقًا لأدائها بأجمل صورة ممكنة ليكون قدوة في البيت وأسوة للآخرين، ومن هذه الأمور المستنكرة والعادات الشائنة (وأْد البنات) وكانت شائعة عند بعض العرب في الجاهلية، فمنهم من كان يئد ابنته تخلصًا من العار، ومنهم من يئدها حماقة وسفهًا، حيث كانوا يقولون: الملائكة بنات الله، قال تعالى ﴿**وإذا الموءودة سئلت * بأي ذنب قتلت**﴾، وقال تعالى: ﴿**أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون**﴾، وكانوا فيه فريقين: منهم من يفعله خشية الإقتار، ومنهم من يفعله خشية العار، ومن العرب ما لا يفعل ذلك[1].

«وقيل وقال» قال الجوهري: في الحديث الإشارة إلى كراهة كثرة الكلام؛ لأنها تؤول إلى الخطأ؛ قال: وإنما كرره للمبالغة في الزجر عنه، فيقول: قال فلان كذا وقيل كذا، والنهي عنه إنما للزجر عن الاستكثار منه، ويؤيد ذلك الحديث الصحيح: «كفىٰ بالمرء إثمًا أن يُحدِّث بكل ما سمع»، ومنه قوله: «إنما الدنيا قيل وقال»[2].

وهذه صفات وعادات لا تليق بالمؤمن المسئول عن خلافة الله في الأرض وعن تعمير الكون، والمشغول بالتكاليف والواجبات والتي هي أكثر من الأوقات، ولذلك عدّ القرآن الكريم في أوائل الصفات التي يتحلى بها عباد الرحمن.

---

(١) راجع فتح الباري، م١٠ ص٤٠٧.

(٢) راجع المصدر نفسه ص٤٠٧.

قال تعالى: ﴿**وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونًا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما**﴾[1]. ﴿**وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين**﴾[2].

فيكون المؤمن بشخصيته هذه ترجمة حية للعقيدة التي يحملها وتكون حياته وحركاته وأعماله صفحة مشرقة معروضة للناس ويحققونها معنى معنى وهم يرونها بينهم الشخصية الإسلامية فتهفو نفوسهم إلى تقليدها. والنبي ﷺ في هذا الحديث يرسم أبعاد الشخصية المسلمة، ومن أبرزها الامتناع عن كثرة السؤال، والمراد بكثرة السؤال عن أخبار الناس وأحداث الزمان أو كثرة سؤال الإنسان عن تفاصيل حاله، فإن ذلك مما يكره المسئول غالبًا، وقد ثبت النهي عن الأغلوطات. أخرجه أبو داود من حديث معاوية، وثبت عن جمع من السلف كراهة تكلف المسائل التي يستحيل وقوعها عادة أو يندر جدًّا[3].

ويقول الإمام النووي: وأما كثرة السؤال فقيل: المراد به القطع في المسائل والإكثار من السؤال عما لم يقع ولا تدعو إليه حاجة، وقد تظاهرت الأحاديث الصحيحة بالنهي عن ذلك، وكان السلف يكرهون ذلك، ويرونه من التكلُّف المنهي عنه[4].

وهي من الضمانات التي اتخذها الإسلام لصيانة المؤمن عن النزق والهوى، وتحريمه الجدل وسدِّه لأبوابه حقًّا كان أو باطلاً.

«وإضاعة المال» قال الحافظ: إن الأكثر حملوه على الإسراف في الإنفاق، وقيده بعضهم بالإنفاق في الحرام، والأقوى أنه ما أنفق في غير وجهه المأذون فيه

(١) سورة الفرقان: ٦٣.
(٢) سورة القصص: ٥٥.
(٣) فتح الباري: م١٠، ص٤٠٧.
(٤) صحيح مسلم بشرح النووي: ج١٢ ص١١.

شرعًا، سواء كانت دينية أو دنيوية فمنع منه؛ لأن الله تعالى جعل المال قيامًا لمصالح العباد، وفي تبذيرها تفويت تلك المصالح، إما في حق مضيعها وإما في حق غيره. ويستثنى من ذلك كثرة إنفاقه في وجوه البر لتحصيل ثواب الآخرة ما لم يُفوّت حقا أخرويًّا أهم منه[1].

قال تعالى: ﴿**والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما**﴾[2].

وهذه سمة الإسلام التي يحققها في حياة الأفراد والجماعات ويتجه إليها في التربية والتشريع ليقيم بناءه كله على التوازن والاعتدال، فالمسلم ليس حرًّا في إنفاق ماله الخاص كما يشاء، كما هو الحال في النظام الرأسمالي وفي النظم الوضعية، وإنما هو مقيد في التوسط في الأمرين: الإسراف والتقتير، فالإسراف مفسدة للنفس والمال والمجتمع، والتقتير دليل البخل وعدم الانتفاع بالمال الحلال وانفاق الجماعة من هذه الأمانة، فالمال أداة اجتماعية لتحقيق معاني ﴿**كنتم خير أمة**﴾ والإسراف والتقتير يحدثان اختلالاً في المحيط الاجتماعي والمجال الاقتصادي وحبْس الأموال يحدث أزمات، ومثله إطلاقها بغير حساب، والإسلام ينظم هذا الجانب بصورة دقيقة.

- فقه الحديث:

١ - قال النووي: اتفق العلماء على النهي عن السؤال من غير ضرورة. قال: واختلف أصحابنا في سؤال القادر على الكسب على وجهين، أصحهما التحريم لظاهر الحديث، والثاني يجوز مع الكراهة بشروط ثلاثة: أن لا يُلح ولا يذل نفسه زيادة على ذل نفس السؤال ولا يؤذي المسؤول. فإن فقد شرط من ذلك حُرِّم[3].

---

(١) راجع فتح الباري، م١٠ ص٤٠٨ـ٤٠٩.
(٢) سورة الفرقان: ٦٧.
(٣) فتح الباري، م١٠ ص٤٠٨.

٢ - قال الحافظ : الحاصل في كثرة الإنفاق ثلاثة أوجه : الأول : إنفاقه في الوجوه المذمومة شرعًا ، فلا شك في منعه ، والثاني : إنفاقه في الوجوه المحمودة شرعًا ، فلا شك في كونه مطلوبًا بالشرط المذكور، والثالث : إنفاقه في المباحات بالأصالة كملاذ النفس ، فهذا ينقسم إلى قسمين : أحدهما أن يكون على وجه يليق بحال المنفق وبقدر حاله ، فهذا ليس بإسراف . والثاني ما لا يليق به عرفًا ، وهو ينقسم أيضًا إلى قسمين : أحدهما ما يكون لدفع مفسدة إما ناجزة أو متوقعة ، فهذا ليس بإسراف ، والثاني ما لا يكون في شيء من ذلك فالجمهور على أنه إسراف[1] .

- ما يستفاد من الحديث:

١ - الحديث يحذر المؤمن من الوقوع في المكروهات والممنوعات التي يقع فيها كثير من العوام .

٢ - الحديث يشير إلى الشخصية الإسلامية المتوازنة التي تتحرى الدقة في الكلام والحيطة في المعاملة والحذر والأدب في الكلام .

٣ - الحديث يرسم الشخصية الإسلامية المتكاملة التي تمتاز بالسمو والشرف وتتصف بالعادات الحسنة والأخلاق السامية والحساسية الإيمانية .

---

(١) المصدر نفسه ، ص٤٠٨ .

الحديث الخامس عشر: صلة الرحم

حدثني إبراهيم بن المنذر حدثني محمد بن معن قال: حدثني أبي عن سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من سرَّه أن يُبْسط له في رزقه وأن يُنْسأ له في أثره فَلْيصلْ رحمة**».

- تخريج الحديث:

وورد بطريق آخر قال: حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب قال أخبرني أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «**من أحبَّ أن يُبْسطَ له في رزقه ويُنْسأ له في أثره فَلْيصلْ رحمه**».

رواه البخاري ـ كتاب الأدب ـ باب من بُسط له في الرزق بصلة الرحم. ورواية أنس بن مالك ذكرها مسلم ـ كتاب البر ـ باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها. رواه أبو داود ـ زكاة ٤٥، رواه أحمد ـ ٣/ ١٥٦، ٢٤٧، ٢٦٦.

فتح الباري، م١٠، كتاب الأدب، باب من يُبسط له في الرزق لصلة الرحم، ص٤١٥.

- المعاني اللغوية:

(يُنسأ) أي يُؤخر.

(في أثره) أي في أجله، وسمى الأجل أثر لأنه يتبع العمر، قال زهير:

والمرء ما عاش ممدود له أمل لا ينقضي العمر حتى ينتهي الأثر

وأصله من أثر مشيه في الأرض، فإن مات لا يبقى له حركة، فلا يبقى لقدمه في الأرض أثر.

- المعنى العام :

في هذا الحديث نجد بعض الملامح التي يتوخى المنهج الإسلامي إنشاءها وتثبيتها في المجتمع المسلم بعد تطهيره من رواسبه المادية والأنانية وإنشاء الأوضاع والتشريعات التنفيذية التي تكفل حماية هذه الملامح وتثبيتها في الواقع الاجتماعي. والحديث روي بأكثر من وجه وفي رواية سعيد المقبري قالوا: مَنْ سرَّه أن يُبسط له في رزقه، وفي حديث أنس (من أحب)، وللترمذي حسّنه من وجه آخر عن أبي هريرة أن صلة الرحم محبةٌ في الأهل، مثراة في المال، ومنسأة في الأثر. وعند أحمد بسند رجاله ثقات عن عائشة مرفوعًا «صلة الرحم وحسن الجوار وحسن الخلق يعمران الديار ويزيدان في الأعمار. والأحاديث كلها يُكمِّل بعضها البعض ويقرر حقيقة البيئة الإسلامية ووحدة أصلها الذي أنشأها منه ربها، وتقرر حقيقة قيامها على قاعدة الأسرة واتصالها بوشيجة الرحم مع استجاشة هذه الروابط كلها في الضمير البشري، واتخاذها ركيزة لتنظيم المجتمع الإسلامي على أساسها، وحماية الضعفاء فيه عن طريق التكافل بين الأسرة الواحدة. عن أبي أيوب الأنصاري - رضي الله عنه - أن رجلاً قال: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة فقال القوم: ما له؟ ما له؟، هو استفهام والتكرار للتأكيد، وقوله أرَبٌ، بفتح الهمزة والراء منوناً أي حاجة وهو مبتدأ وخبره محذوف «له أرث» له حاجة ما ــ وقال ابن الجوزي المعنى له حاجة مهمة مفيدة جاءت به لأنه قد علم بالسؤال أن له حاجة وقال الأصمعي أرَبَ في الشيءُ صار ماهراً فيه أي قال النبي ﷺ لقد وضعه أو هدى»(١).

والحديث يستجيش في النفس تقوى الرب والابتعاد عن الشرك ورعاية الرحم لتقيم على هذا الأصل الكبير تكاليف التكافل والتراحم في الأسرة الواحدة ثم في البيئة المسلمة، قال تعالى ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرًا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبًا**﴾(٢).

---

(١) المصدر نفسه جـ٣ كتاب الزكاة، ص٢٦٤.

(٢) سورة النساء : ١.

والآية توحي بأن هذه البشرية التي صدرت من إرادة واحدة وتتصل في رحم واحدة وتلتقي في وشيجة واحدة وتنبثق من أصل واحد وتنتسب إلى نسب واحد «خلقكم من نفس واحدة» لو تذكر الناس هذه الحقيقة لتضاءلت في حسهم كل الفروق الطارئة، ففرقت بين أبناء النفس الواحدة، ومزَّقت وشائج الرحم الواحدة، وكلها ملابسات طارئة ما كان يجوز أن تطغى على مودة الرحم وحقها في الرعاية وصلة النفس وحقها في المودة وصلة الربوبية وحقها في التقوى. جاء الإسلام بالمنهج الرباني القديم ليرد البشرية إلى هذه الحقيقة البسيطة بعد ذلك الضلال البعيد «من سرَّه أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه».

عن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - قال النبي ﷺ: «إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ من خَلْقه قالت الرحم: هذا مقام العائذ بك من القطيعة. قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصله وأقطع من قطعه؟ قالت: بلى يا ربي. قال: فهو لك. قال رسول الله ﷺ: فاقرءوا إن شئتم ﴿**فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم**﴾»(١).

في هذه الآيات والأحاديث حشد من مظاهر تلك العناية بالأسرة في النظام الإسلامي، وما كان يمكن أن يقوم للأسرة بناء قويم، وهناك أحاديث كثيرة متناثرة تشير إلى الرعاية للرحم والقرابة في النظام الإسلامي؛ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ: «إن الرحم شجنة(*) من الرحمن فقال الله: من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته»(٢)

---

(١) فتح الباري، كتاب الأدب، باب من وصله الله، م١٠، ص٤١٦.

(*) شجنة بكسر المعجمة وسكون الجيم، وجاء بضم أدلة وفتحه، وأصل الشجنة عروق الشجر المتشابكة، والشجن بالتحريك: الشجون وهي طرق الأودية ومنه قولهم: الحديث ذو شجون أي يدخل بعض في بعضه.

(٢) المصدر نفسه ص٤١٧.

والإسلام عندما يعتني بصلة الرحم هذه العناية بتوثيق عراها وحمايتها من جميع المؤثرات التي توهن هذا البناء، إنما يريد بذلك إقامة الأسس التي ينهض عليها نظام المجتمع وحياته من التكافل في الأسرة والجماعة والرعاية لحماية حقوق الضعاف فيها والمحافظة على أموال الجماعة في عمومها.

وكثيرًا ما يجد المؤمن في تطبيق هذه المفاهيم عقبات ومصاعب في الطريق، فيحار أمام تنفيذ هذه الأوامر، عن أبي هريرة قال: «إن رجلاً قال: يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ وأحلم عنهم ويجهلون عليَّ، فقال: إن كنت كما قلت فكأنما تُسِفُّهم المَلَّ(*) ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك». أي كأنما تطعمهم الرماد الحار، وقيل معناه أنك بالإحسان إليهم تخزيهم وتحقرهم في أنفسهم لكثرة إحسانك وقبيح فعلهم من الخزي والحقارة عند أنفسهم(١).

والحديث يشير إلى رعاية الأسرة القريبة وإقامة قيم وموازين في هذا الحقل رغم الصعوبات والمشاكل التي تواجه المؤمن في هذا الميدان.

قال تعالى: ﴿**واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخورًا**﴾(٢).

يتحمل المؤمن المعوقات والمتاعب التي يتلقاها في سبيل تطبيق مفاهيم صلة الرحم، لأن التشريعات والتوجيهات في الإسلام إنما تنبثق كلها من أصل واحد وترتكز على ركيزة واحدة، إنها تنبثق من العقيدة في الله بعبادة الله، وتحريم

(*) المَلَّ: الرماد الحار.

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، ج١٦، كتاب البر، باب صلة الرحم وتحريم قطعها، ص١١٥.

(٢) النساء: ٣٦.

عبادة أحد معه سواه، ثم ينطلق بالأمر إلى الإحسان بالوالدين على التخصيص ولذوي القربى على التعميم، ونلاحظ في هذه الآية أن التوجيه للبر يبدأ بذوي القربى قرابة خاصة أو عامة ثم يمتد منها ويتسع نطاقه من محورها إلى بقية المحتاجين، وينساح في محيط الجماعة كي لا يركز عمليات التكافل في يد الأجهزة الحكومية الواسعة؛ فالوحدات المحلية الصغيرة أقدر على تحقيق هذا التكافل في وقته المناسب وفي سهولة ويسر وفي تراحم وود[1].

- فقه الحديث:

قال ابن التين ظاهر الحديث «وينسأ له في أثره» يعارض قوله تعالى ﴿**فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون**﴾.

والجمع بينهما من وجهين، أحدهما أن هذه الزيادة كناية عن البركة في العمر بسبب التوفيق إلى الطاعة. وعمارة وقته بما ينفعه في الآخرة، وصيانته عن تضييعه في غير ذلك. ومثل هذا ما جاء أن النبي ﷺ أخبر عن تقاصر أعمار أمته بالنسبة لأعمار من مضى من الأمم، فأعطاه الله ليلة القدر. وحاصله أن صلة الرحم تكون سببًا للتوفيق للطاعة والصيانة عن المعصية، فيبقى الذكر الجميل، فكأنه لم يمت، ومن جملة ما يحصل له من التوفيق العلم الذي ينتفع به من بعده، والصدقة الجارية عليه والخلف الصالح.

وثانيهما الزيادة على حقيقتها وذلك بالنسبة إلى علم الملك الموكل بالعمر، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿**يمحُو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب**﴾ [الرعد: ٣٩] ومعنى هذه الأقوال أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها ويثبت ما يشاء وقد يستأنس لهذا القول بما رواه الإمام أحمد... عن ثوبان قال رسول الله

---

(١) راجع في ظلال القرآن، م٢ سورة النساء آية ٣٦، ص ٦٥٩ و٦٥٨.

ﷺ: «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البرّ»، رواه النسائي وابن ماجه من حديث سفيان الثوري به.

وثبت في الصحيح أن صلة الرحم تزيد في العمر[1].

- ما يستفاد من الحديث:

١ - صلة الرحم من المبادئ الأساسية التي تكفل تماسك الجماعة والأسر وتبعث الطمأنينة بين الأفراد، والعوائل والثقة بالمعاملات والوعود والسكينة عند الملمات والمصائب.

٢ - وذكر القرآن صلة الرحم ضمن الإحسان ﴿**إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى**﴾ [النحل: ٩٠]. تعظيما لشأنه، وتوكيدًا عليه.

---

(١) راجع فتح الباري، ج ١٠، كتاب الأدب، باب من بسط له في الرزق لصلة الرحم، ص٤١٦، وابن كثير، ج٢، سورة الرعد، ص٨٠٤.

obeikandl.com

الحديث السادس عشر: من تشبه بقوم فهو منهم

حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا أبو النضر ـ يعني هاشم بن القاسم ـ حدثنا عبد الرحمن بن ثابت، حدثنا حسان بن عطية، عن أبي منيب الجرش، عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تشبّه بقوم فهو منهم**».

- تخريج الحديث:

- رواه أبو داود، كتاب اللباس، باب في لباس الشهرة رقم ٣٨٧٢.

- قال الحافظ المنذري في مختصره سنن أبي داود: (في إسناده عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، وهو ضعيف).

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: وأما عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، فقال يحيى بن معين، وأبو زرعة، وأحمد بن عبد الله: «ليس به بأس». وقال عبدالرحمن بن إبراهيم، دحيم: «هو ثقة». وقال أبو حاتم: «هو مستقيم الحديث». وأما أبو منيب الجرشي، فقال فيه أحمد بن عبد الله العجلي: «هو ثقة وما علمت أحدًا ذكره بسوء وقد سمع منه حسان بن عطية». وقد أحتج الإمام أحمد، وغيره، بهذا الحديث(١).

- وأخرجه الإمام أحمد في مسنده أتم منه: حدّثنا عبد الله حدثني أبي ثنا أبو النضر ثنا عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان ثنا حسان بن عطية عن أبي منيب الجرشي عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: « بُعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يُعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت رمحي، وجعل

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، لشيخ الإسلام ابن تيمية: م١ ص٢٣٦ ـ ٢٣٧ تحقيق وتعليق د. ناصر بن عبد الكريم العقل.

الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم».

مسند الإمام أحمد: ٢/ ٥٠.

- الراوي:

عبد الله بن عمر بن الخطاب بن كعب بن لؤي بن غالب، الإمام القدوة شيخ الإسلام أبو عبد الرحمن القرشي العدوى المكي ثم المدني.

أسلم وهو صغير ثم هاجر مع أبيه واستصغر يوم أحد فأول غزواته الخندق، وهو ممن بايع تحت الشجرة وأمه أم أم المؤمنين حفصة، زينب بنت مظعون.

روى علمًا كثيرًا نافعًا عن النبي ﷺ وعن أبيه وأبي بكر وعثمان وبلال وصهيب وزيد بن ثابت وحفصة أخته وغيرهم.

قدم الشام والعراق والبصرة وفارس غازيًا. وعن نافع أن ابن عمر بارز رجلاً في قتال أهل العراق فقتله وأخذ سلبه. وهذه أدلة على أنه كان يجمع - رضي الله عنه - بين الفقه والعلم والجهاد والفروسية، وبين العبادة والزهد والتمسك بسنة النبي ﷺ.

وروى سالم عن أبيه قال: كان الرجل في حياة رسول الله ﷺ إذا رأى رؤيا قصها على رسول الله ﷺ وكنت غلامًا عزبًا شابًّا فكنت أنام في المسجد فرأيت كأن ملكين أتياني فذهبا بي إلى النار فإذا هي مطوية كطي البئر ولها قرون كقرون البئر فرأيت فيها ناسًا قد عرفتهم فجعلت أقول أعوذ بالله من النار، فلقينا ملك فقال: لن تراع. فذكرتها لحفصة فقصتها حفصة على رسول الله ﷺ فقال: «نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل». قال: فكان بعد لا ينام من الليل إلا القليل.

يقول عنه ابن مسعود: إن من أملك شباب قريش لنفسه عن الدنيا عبد الله ابن عمر. وعن طاووس: ما رأيت أورع من ابن عمر. وقال أبو جعفر الباقر: كان ابن عمر إذا سمع من رسول الله ﷺ حديثًا لا يزيد ولا ينقص ولم يكن أحد في ذلك مثله. وكان شديد التمسك بسنة النبي ﷺ، عن نافع أن ابن عمر كان يتبع آثار رسول الله ﷺ كل مكان صلى فيه حتى إن النبي ﷺ نزل تحت شجرة فكان ابن عمر يتعاهد تلك الشجرة فيصب في أصلها الماء لكي لا تيبس.

وكان من شدة ورعه لا يكثر الحديث. قال الشعبي: جالست ابن عمر سنة فما سمعته يحدث عن النبي ﷺ إلا حديثًا واحدًا.

وعرف بخشوعه وزهده وورعه والصلة القوية بالله تعالى. قال حبيب بن الشهيد: قيل لنافع: ما كان يَصْنَعُ ابن عمر في منزله، قال: لا تطيقونه الوضوء لكل صلاة والمصحف فيما بينهما. وعن نافع أيضًا أن ابن عمر إذا كان فاته العشاء في جماعة أحيا بقية ليلته. وعن ابن المبارك أخبرنا عمرو بن محمد بن زيد أخبرنا أبي: أن ابن عمر كان له مهراس فيه ماء فيصلي فيه ما قدر له ثم يسير إلى الفراش فيغفي إغفاءة الطائر، ثم يقوم فيتوضأ، ويصلي يفعل ذلك في الليل أربع مرات أو خمسًا. وعن نافع كان ابن عمر إذا قرأ: ﴿**ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله**﴾ [الحديد: ١٦] بكى حتى يغلبه البكاء. وعرف - رضي الله عنه - بزهده وبعده عن حب الدنيا، وله في ذلك قصص مثيرة. قال أبو هلال: حدثنا أيوب بن وائل قال: أوتي ابن عمر بعشرة آلاف ففرقها وأصبح يطلب لراحلته علفًا بدرهم نسيئة. وعن برد بن سنان عن نافع قال: إن كان ابن عمر ليفرق في المجلس ثلاثين ألفًا ثم يأتي عليه شهر ما يأكل مزعة لحم. وعن نافع أيضًا قال: بعث معاوية إلى ابن عمر بمائة ألف فما حال عليه الحول وعنده منها شيء.

وعن نافع أيضًا أن ابن عمر كان يقبض على لحيته ويأخذ ما جاوز القبضة. وقال مالك: كان إمام الناس عندنا بعد زيد بن ثابت عبد الله بن عمر مكث ستين سنة يفتي الناس.

وقضى - رضي الله تعالى عنه - عمرا مديدًا حافلاً بالعلم والعبادة، متمسكًا بسنة النبي ﷺ ومهتمًّا بالاقتداء بآثاره وسننه القولية والفعلية. عن سعيد بن جبير قال: لما احتضر ابن عمر قال: ما آسى على شيء من الدنيا إلا على ثلاث: ظمأ الهواجر ومكابدة الليل وأني لم أقاتل الفئة الباغية التي نزلت بنا يعني الحجاج. وقال مالك: بلغ ابن عمر سبعا وثمانين سنة ومات - رحمه الله - سنة ثلاث وسبعين بمكة ودفن بذي طوى.

ولابن عمر في (مسند بقي) ألفان وستمائة وثلاثون حديثًا بالمكرر واتفقا له على مائة وثمانية وستين حديثًا، وانفرد له البخاري بواحد وثمانين حديثًا. ومسلم بواحد وثلاثين حديثًا[1].

المعاني اللغوية:

تشبّه به: ماثله وجاراه في العمل، تشابه الرجلان: أشبه كل منهما الآخر وتشابها واشتبها: أشبه كل منهما الآخر حتى التبسا.

وبكل حال يقتضي تحريم التشبه بعلة كونه تشبه، والتشبه يعم من فعل الشيء لأجل أنهم فعلوه وهو نادر، ومن تبع غيره في فعل لغرض له في ذلك، إذا كان أصل الفعل مأخوذًا عن ذلك الغير. فأما من فعل الشيء واتفق أن الغير فعله أيضًا ولم يأخذه أحدهما عن صاحبه ففي كون هذا تشبهًا نظر، لكن قد

---

(١) سير أعلام النبلاء، ج ٣ ص٢٠٣ ـ ٢٣٩ باختصار وتصرف، وترجمته في طبقات ابن سعد مطولة في ثمان وثلاثين ورقة.

يُنهى عن هذا لئلا يكون ذريعة إلى التشبه[1].

القوم: الجماعة من الناس. والقوم: الجماعة من الرجال والنساء معًا.

المعنى العام:

هاجر النبي ﷺ إلى المدينة وكانت فيها ثلاث قبائل من اليهود بلغ عدد رجالها البالغين أكثر من ألفين وهي: قينقاع، النضير، قريظة، وتعيش فيها بطون الأوس والخزرج سكان المدينة العرب، وكانت موجات الهجرة من اليمن إلى يثرب متفرقة في أوقات مختلفة، وفي مثل هذه البيئات المختلطة والمختلفة كان النبي ﷺ يربي أمته ويؤدب أصحابه ويهذب طبائعهم، ويحدّد لهم معالم وعادات في ضوء الكتاب والقيم الجديدة، وهي بمثابة علامات ومقدمات ترسم شخصية المسلم في أفقه الأسمى، ويوضح القرآن هذا الرسم ويبرز تلك الملا١٦٢١٦٢١٦٢١٦٢مح، قال تعالى: ﴿**قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون**﴾[2].

تلك الخصائص تحدد شخصية المؤمنين المكتوب لهم الفلاح، وهي خصائص ذات أثر حاسم في تحديد خصائص الجماعة المؤمنة ونوع الحياة التي يحياها، الحياة الفاضلة اللائقة بإنسان مسلم، أراد الله له التدرج في مدارج الكمال، وأراد له أن يكون أسوة للآخرين، ولم يرد له أن يحيا حياة الحيوان يستمتع فيها ويلبس ويأكل بدون هوية. ولما كانت الشخصية المؤمنة في هذه الأرض لا تُعرف عادة إلا باللباس والهندام وبالمظهر وبتقاطيع الوجه من

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، ج١ ص٢٣٨.

(٢) سورة المؤمنون: ١ ـ ٤.

الشوارب واللحي، والأكل والشرب ولما كانت هذه الأمور تحتاج إلى إبراز الحدود وبيان المقادير وإظهار الألوان والمقاييس والقيم المطلوبة في هذا المجال فقد وضّح كل ذلك ﷺ بكل أبعادها حتى لا يتشبه مؤمن بكافر «من تشبه بقوم فهو منهم» قال تعالى: ﴿**قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون**﴾(١).

والله كرّم بني آدم بنعمته عليهم في تشريع اللباس، والستر صيانة لإنسانيتهم وتقديراً لكرامتهم وأفضليتهم ولكي يتميز عن الحيوان وسائر الكائنات الحية بالعقل واللباس، ثم ميز المسلم على غيره من الأمم بالسمو والسلوك وبالعبادة والأمانة وبالأخوة والإخلاص وباللباس والهندام وبالتحية والسلام، ورسم معالم الشخصية المؤمنة، ونهى عن التشبه بالكفار، وأمر بمجانبة عاداتهم على العموم، وفي أعيادهم على الخصوص، واعتبر مخالفة المشركين واليهود والنصارى أصلاً من أصول العقيدة.

وحديث «من تشبه بقوم فهو منهم» بليغ في مفاهيمه، وشامل لجميع مظاهر التشبه. وهذا الحديث أقل أحواله أن يقتضي تحريم التشبه بهم، وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبه بهم، كما في قوله تعالى: ﴿**ومن يتولهم منكم فإنه منهم**﴾(٢). وهو نظير ما روي عن عبد الله بن عمرو أنه قال: «من بنى بأرض المشركين وصنع نيروزهم ومهرجانهم وتشبه بهم حتى يموت حشر معهم يوم القيامة»(٣).

---

(١) سورة الأعراف: ٣٢.

(٢) سورة المائدة: ٥١.

(٣) راجع كتاب اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، م١ ص٢٣٧، تحقيق د. ناصر عبد الكريم العقل.

هذه الآيات والأحاديث تشير إلى أصلين من أصول الدين لكل واحد منهما علاقة بالآخر: الأول: إخبار الرسول ﷺ القاطع بأن أمته ستتبع سنن الأمم التي قبلها «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟!»[1]. فأخبر أنه سيكون في أمته مضاهاة لليهود والنصارى وهم أهل الكتاب وتقليد لفارس والروم وهم الأعاجم.

وقد كان ﷺ ينهى عن التشبه بهؤلاء وهؤلاء وليس هذا إخبارًا عن جميع أمته، بل تواتر عنه أنه لا تزال طائفة من أمته ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة. والأصل الثاني الذي يشير إليه الحديث أن وقوع بعض الأمة في هذا التشبه قدر من أقدار الله وأن إخبار الرسول ﷺ بأن أمته ستتبع سنن الذين من قبلها جاء بمعرض النهي والتحذير، وليتخذ المؤمن حذره من موقف التقليد والتشبه بغير المسلمين، وليتمسك بالكتاب والسنة وليقتفي أثر السلف الصالح في هذا المجال.

وكان ﷺ يغرس مفاهيم مخالفة المشركين وغيرهم في نفوس أصحابه في مناسبات ووقفات متعددة.

نهي عن التشبه في العقيدة:

أخبرنا سفيان عن الزهري عن سنان بن أبي سنان عن أبي واقد الليثي «أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى حنين مر بشجرة للمشركين يقال لها ذات أنواط

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ـ كتاب الاعتصام، باب قول النبي ﷺ «لتتبعن سنن من كان قبلكم» ج١٣ ص٣٠٠.

يعلقون عليها أسلحتهم قالوا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط[1] كما لهم ذات أنواط. فقال النبي ﷺ: سبحان الله! هذا كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، والذي نفسي بيده لتركبن سنة من كان قبلكم». هذا حديث حسن صحيح[2].

قال ابن بطال: أعْلَمَ ﷺ أن أمته ستتبع المحدثات من الأمور والبدع والأهواء كما وقع للأمم قبلهم وأن الدين إنما يبقى قائمًا عند خاصة من الناس، قلت: وقد وقع معظم ما أنذر به ﷺ وسيقع بقية ذلك[3].

وقد أدرك السلف أهمية الحديث وخطورته وحذروا المسلمين من التشبه والتقليد وتطبيع العلاقات ومما ستقع به الأمة الإسلامية من المضاهاة الآن.

النهي عن التشبه في العبادة:

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «صوموا يوم عاشوراء وخالفوا فيه اليهود وصوموا قبله يومًا أو بعده يومًا»[4].

هذا مثال واضح للمخالفة الشاملة «فتدبر هذا يوم عاشوراء يوم فاضل يكفر سنة ماضية، صامه رسول الله ﷺ وأمر بصيامه، ورغب فيه ثم لما قيل له قبيل وفاته إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى أمر بمخالفتهم بصوم يوم آخر وعزم على ذلك»[5].

---

(١) أنواط: قال الجزري في النهاية: هي اسم شجرة بعينها كان المشركون ينوطون بها سلاحهم، أي يعلقون بها ويعكفون حولها فسألوه أن يجعل لهم مثلها فنهاهم عن ذلك، وأنواط جمع نوط، وهو مصدر سمى به المنوط.

(٢) تحفة الأحوذي م٦ باب (لتركبن سنن من كان قبلكم) ص ٤٠٨.

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري. كتاب الاعتصام ج١٣ ص٣٠١.

(٤) مسند الإمام أحمد ج١ ص٢٤١.

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم ص٢٤٩.

أمثلة حية للتربية النبوية للأمة الإسلامية على مخالفة اليهود والنصارى والمشركين في العقيدة والعبادة ولتتميز الشخصية الإسلامية بتشريعاتها وعقائدها وعاداتها.

النهي عن التشبه في اللباس :

التشابه في المظهر والملبس يورث نوعا من المودة والمحبة وموالاة في الباطن، فالمسلم الذي يتشبه بالكفار بأي نوع من أنواع التشبه الظاهر في لباسه وعاداته فإن ذلك التشبه إنما يصدر عن إعجاب وإحساس بتفوق الآخرين عليه.

وقد رأينا اليهود والنصارى الذين عاشروا المسلمين هم أقل كفرًا من غيرهم كما رأينا المسلمين الذين أكثروا من معاشرة اليهود والنصارى هم أقل إيمانًا من غيرهم، والمشاركة في الهدى الظاهر توجب أيضًا مناسبة وائتلافًا.

وحديث «من تشبه بقوم فهو منهم» أوضح ما فيه هو التشبه في اللباس والمظهر «وبهذا احتج غير واحد من العلماء على كراهة أشياء من زي غير المسلمين. قال محمد بن أبي حرب: سئل أحمد عن نعل سندي يخرج فيه فكرهه للرجل والمرأة وقال: إن كان للكنيف والوضوء، وأكره الصرار، وقال: وهو من زي العجم»(١).

وروى الخلال عن أحمد بن إبراهيم الدورقي قال: سألت سعيد بن عامر عن لباس النعال السبتية فقال: زي نبينا أحب إلينا من زي باكهن ملك الهند ولو كان في مسجد المدينة لأخرجوه من المدينة(٢).

ولربما إسبال الثوب كان خاصًا ببعض الناس، ولذلك منع الإسلام تقليده، عن سالم بن عبد الله عن أبيه قال: «من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ص٢٣٩. الكنيف هو المرحاض. الصرار: نوع من الأحذية التي يلبسها العجم.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٤٧، ٢٤٨.

القيامة. قال أبو بكر: يا رسول الله إن أحد شقي إزاري ليسترخي إلا أن أتعهد ذلك منه. فقال النبي ﷺ: لست ممن يصنعه خيلاء»[1].

ولتكون الصورة واضحة والأمور مباحة في اتخاذ أشكال اللباس وأنواعه فقد وردت في ذلك أحاديث كثيرة تبين المستحب والمفضل وسنشير إلى بعض منها حتى لا يلتبس التشبه في مثل هذه الأمور.

وكما أن الفرق بين الرجال والنساء لما كان مطلوبًا ظاهرًا وباطنًا لعن الله المتشبهات من النساء بالرجال والمتشبهين من الرجال بالنساء وقال: «أخرجوهم من بيوتكم»، ونفى المخنث لما كان رجلاً متشبهًا في الظاهر بغير جنسه[2].

ولما كان اللباس من أوضح وسائل التشبه لذلك ذكر الإسلام الأشياء المباحة وبين الممنوعات للرجال والنساء.

نظرة الإسلام إلى لبس الحرير:

عن نافع عن عبد الله «أن عمر رضي الله عنه رأى صلة سيْرَاء تباع فقال: يا رسول الله لو ابتعتها تلبسها للوفد إذا أتوك والجمعة قال: إنما يلبس هذه من لا خلاق له»، «وأن النبي ﷺ بعث بعد ذلك إلى عمر حلة سيراء حرير كساها إياه فقال عمر: كسوتينها تقول فيها ما قلت؟ فقال: إنما بعثت إليك لتبيعها أو تكسوها[3].

موقف نبوي تربوي يتضمن مفاهيم جديدة نحو اللباس والحرير ويزيل كثيرًا من الغبش والغموض وأن كثيرًا من الأشياء تهدى ليس للاستعمال

---

(١) فتح الباري، م١٠، كتاب اللباس باب من جر إزاره من غير خيلاء ص ٢٥٤.
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ص٢٤٧، ٢٤٨.
(٣) صحيح البخاري بحاشية السندي؛ ج٣ كتاب اللباس باب الحرير للنساء ص٣٢.

الشخصي، بل للاستمتاع بها بأساليب أخرى فهي تهدى وتباع، وقد يلائم هذا اللباس النساء وغير مسموح للرجال. ولذلك أهدى عمر - رضي الله عنه - هذه الحلة الحريرية لأخ له مشرك في مكة. وهذا الأخ الذي كساه عمر كان أخاه من أمه وقد جاء ذلك مبينا في كتاب النسائي، وقيل إن اسمه عثمان بن حكيم.

وظل النبي ﷺ يبرز شخصية هذه الأمة المتميزة بالتوجيهات والتصريحات وبالأمر والنهي. عن علي - رضي الله عنه - قال: «نهاني رسول الله ﷺ عن خاتم الذهب ولبس القسي والميثرة الحمراء»(١).

خصوصية الحرير والذهب للنساء:

عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: «إن نبي الله ﷺ أخذ حريرًا وجعله في يمينه وأخذ ذهبًا فجعله في شماله ثم قال: إن هذين حرام على ذكور أمتي»(٢).

مظاهر تخص الرجال:

وقد اعتنى النبي ﷺ بإبراز الشخصية الإسلامية بأدق مظاهرها، وكان الأصل في هذه الأمور مخالفة اليهود والنصارى والمشركين لتتجلى الشخصية الإسلامية بجمالها وزينتها وشموخها ورجولتها وبحشمتها ووقارها وسط الأمم لا تشتبه على الناس، بل يشار إليها بالبنان؛ عن محمد بن زيد عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: « خالفوا المشركين وفروا اللحى وأحفوا الشوارب». وكان ابن عمر إذا حج أو اعتمر قبض على لحيته فما فضل أخذه(٣).

---

(١) مختصر سنن أبي داود. كتاب اللباس باب من كرهه، ج٥ ص٣٤.
(٢) مختصر سنن أبي داود للمنذري: كتاب اللباس باب في الحرير للنساء، ج٥ ص٣٥.
(٣) صحيح البخاري بحاشية السندي، ج ٤ كتاب اللباس، باب تقليم الأظافر ص٣٩.

وتقول عائشة رضي الله عنها: إن الله تعالى زين الرجال باللحى. وعمل ابن عمر - رضي الله تعالى عنه - بتهذيب لحيته. وتعهدها توضيح جميل لبيان هذه الزينة. ويوضح ابن عمر رضي الله عنه معاني هذه الزينة. عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من الفطرة حلق العانة وتقليم الأظافر وقص الشارب»(١).

وهي من أبرز مظاهر مخالفة اليهود والنصارى. والرواية التالية تزيد وضوحًا لفكرة المخالفة وعدم التشبه باليهود والنصارى. حدثنا زهري عن أبي سلمة وسليمان بن يسار عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال النبي ﷺ: «إن اليهود والنصارى لا يصبغون لحيتهم فخالفوهم»(٢).

والإسلام يريد أن تبقى الشخصية الإسلامية جلية واضحة لا تقلد الأمم ولا تتشبه بالأقوام. وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حريصًا شديد الحرص لتجديد هذه المعاني وتحذير جنوده من التشبه بالأعاجم. «حدثنا قتادة قال: سمعت أبا عثمان النهدي أتانا كتاب عمر ونحن مع عتبة بن فرقد بأذربيجان أن رسول الله ﷺ نهى عن الحرير إلا هكذا وأشار بإصبعيه اللتين تليان الإبهام - قال فيما علمنا أنه يعني الأعلام. وعن أبي عثمان قال: كنا مع عتبة فكتب إليه عمر - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: لا يلبس الحرير في الدنيا إلا لم يلبس منه شيء في الآخرة (٣).

تحذير المجاهدين من التشبه بالأمم:

وفي ظروف الدولة الجديدة في المدينة أصبح الجهاد ركنًا مهماً لتوطيد دعائم

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه ص ٣١.

الدولـة الفتية ونشر دعـوتها، وكان اختـلاط المجاهـدين مع الأقـوام والشعوب مطلبًـا من مطالب الجهـاد، وكـان من الممكن أن تُبهـر العيون التي عـاشت في الصحراء بمظـاهر المدينـة وملابسهـا المزركشة فتُعجب وتندفـع للتقليد، وكأن مربي الأمـة قد أدرك ذلك بثاقب نظـره، فعن أبي إسحق عن البراء رضي الله عنه قال: أُهْـدِي للنبي ﷺ ثوب حـرير فجعلنـا نلمسه ونتعجب منـه، فقال النبي ﷺ: «أتعجبون من هذا؟ قلنا: نعم. قال: مناديل سعد بن معاذ في الجنة خيرٌ من هذا»(١).

والحديث يعـد لمحة من لمحـات التربية، ومعـالجة أغوار النفس الإنسـانية، وكأنه ﷺ أدرك أبعاد طـريق الجهاد ومدى اختلاط المجاهـدين بالأمم والأقوام التي لها عاداتها الجاهليـة ومقاييسها المادية، والمؤمن يسمـو بهذه الأمور ويتطلع إلى الآفاق العالية وإلى أن الدنيـا مزرعة للآخرة ﴿**ولا تَمُدَّنَّ عينيْك إلى ما متَّعْنا به أزواجًا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خيرٌ وأبقى**﴾(٢).

هكذا يبين النبي ﷺ أهـداف الدنيا وواجبـات المؤمن، عن البراء رضي الله عنه قال: «أمـرنا النبي ﷺ بسبع: عيـادة المريض واتباع الجنـائز وتشميت العاطس، ونهانا عن لبس الحرير والديباج والقسّيّ والإستبرق وميائر الحمر»(٣).

قال عاصم: قلت لعلي: ما القسية؟ قال: ثياب أتتنا من الشام أو من مصر مُضلَّعة فيها حرير فيها أمثال الأترنج والميثرة كانت النساء تصنعه لبعولتهن مثل العطائف يصفِّرونها. وقال جرير عن زيـد في حديثه: القسية ثياب مُضلّعة يُجاء بها من مصر فيها الحرير.

---

(١) صحيح البخاري بحاشية السندي، ج٤ ص٣١ كتاب اللباس ـ باب مس الحرير من غير لبس.
(٢) طه: ١٣١.
(٣) المصدر نفسه: باب الميثرة الحمراء.

هكذا تفرد الإسلام بمنهجه الرباني في إبراز خصائص الإنسان المسلم ورسْم معالمه وتحديد ملابسه وسماته التي يتميز بها وسط الأمم ليكون شامة بين الناس.

وساحات الجهاد ومجالاتها الواسعة أكثر تعرضًا بالأمم والشعوب المختلفة وأكثر احتمالاً للتشبه بهم، وحديث «من تشبه بقوم فهو منهم» جاء في معرض الجهاد حدثنا ابن ثوبان عن حسان بن عطية عن أبي منيب الجرشي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت بالسيف حتى يعبد الله لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم»(١).

وهذه التربية النبوية تركت أثرًا بالغًا في نفوس الصحابة، فكانوا شديدي الحرص شديدي الحساسية يحاولون الابتعاد عن جميع مظاهر التشبه، وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه له مواقف تربوية رائعة في هذا المجال.

تحذير عمر للمجاهدين من التشبه:

وشخصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه تمثل قوة متكاملة لإبراز مظاهر الإسلام في الميادين المختلفة ومحاربة مفاهيم الذل والإهانة وتطبيق الحديث «وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري». وكان - رضي الله - عنه شديد العناية بتربية جنوده على القيم الإسلامية السامية وتحذيرهم من التشبه، وكان يكتب إلى قادة الجيوش وهم في مهمة الجهاد أن يبتعدوا عن جميع مظاهر التشبه ويتمسكوا بالقيم الإسلامية ويعتزوا بمظاهر الإسلام وإبراز السنن النبوية في مجالات الحياة المختلفة؛ عن أبي عثمان النهدي عن عمر بن الخطاب - رضي الله

---

(١) مسند الإمام أحمد، ج٢ ص٥٠.

تعالى عنه – أنه قال: « اتّزروا وارتـدوا وانتعلوا والقوا الخفاف والسراويلات والقوا الركب وانزوا نزوًا وعليكـم بالمعدية[1] وارموا الأغراض وذروا التنعم وزي العجم وإياكم والحريـر؛ فإن رسول الله ﷺ قد نهى عنه، وقال: لا تلبسـوا من الحرير إلا ما كان هكذا وأشار رسول الله ﷺ بإصبعيه»[2].

وهذه الـرسالـة التربويـة أرسلها عمـر بن الخطـاب – رضي الله عنه – إلى أبي عثمان النهدي والجنود وهم في مهمة الجهاد في أذربيجان[3]، مما يدل على متابعة تطبيق هدى النبي ﷺ حتى في حالة الجهاد وفي الديار النائية. وقد كان – رضي الله تعـالى عنـه – قـد طبق فعـلاً بنفسـه هذه المفـاهيم وهـو خـارج العـاصمـة الإسلامية؛ فعن أبي شعيب أن عمر كان بالجابيـة فذكر فتح بيت المقدس، قال حماد بن سلمـة: فحدثني أبـو سنان عن عبيـد بن آدم قال: «سمعت عمـر بن الخطـاب رضي الله تعـالى عنـه يقـول لكعب: أين تـرى أن أصلي؟ فقـال: إن أخـذت عني صليت خلف الصخـرة فكـانت القـدس كلها بين يـديك فقـال عمر: ضاهيت اليهـود. لا. ولكن أصلي حيث صلى رسول الله ﷺ، فتقدم إلى القبلة ثم جاء فبسط رداءه فكنس الكناسة في ردائه وكنس الناس»[4].

فعمـر – رضي الله تعـالى عنـه – عـاب على كعب مضـاهـاة اليهـوديـة، أي مشابهتهـا في مجرد استقبال الصخـرة وقد كان لعمـر رضي الله تعالى عنـه في هذا الباب من السيـاسات المحكمة ومن مظاهـر القوة للدولة الإسلاميـة ما يتطلب الدراسـة الشاملة، فإنـه – رضي الله عنه – هـو الذي استحالت ذنـوب الإسلام بيده غربًـا فأعز الإسلام وأذل الكفر، وأقام شعـار الدين الحنيف مطيعًا في ذلك

(١) بالمعدية: وهي زي بني معد بن عدنان وهم العرب فالمعدية، نسبة إلى معد.
(٢) مسند الإمام أحمد، ج١ ص٤٣.
(٣) الفروسية، لابن القيم، ص١٢١.
(٤) مسند الإمام أحمد، ج١ ص٣٨.

الله ورسوله، وقافًا عند كتاب الله متمثلاً لسنة رسول الله ﷺ محتذيًا حذو صاحبيه مشاورًا في أموره السابقين الأولين.

والمخالفة ومحاربة التشبه لا تكون إلا مع ظهور الدين وعلوه كالجهاد وإلزامهم بالجزية والصغار.

متى يباح التشبه بغير المسلمين:

الإسلام دين عَالميٌ انتشر في أرجاء الأرض وأنحاء المعمورة، وقد ينتاب المسلم حالة يضطر معها إلى التشبه بالكفار فإنه يجوز له ذلك في الحدود المعلومة ومثل ذلك اليوم لو أن المسلم بدار حرب أو دار كفر غير حرب لم يكن مأموراً بالمخالفة لهم في الهدي الظاهر؛ لما عليه في ذلك من الضرر، بل قد يستحب للرجل أو يجب عليه أن يشاركهم أحيانًا في هديهم الظاهر إذا كان في ذلك مصلحة دينية من دعوتهم إلى الدين، والاطلاع على باقي أمورهم لإخبار المسلمين بذلك، أو دفع ضررهم عن المسلمين من بطش واغتيال ونحو ذلك[1].

خطورة التشبه بالحضارة الغربية:

تعرض المسلمون إلى حملات من الزندقة والإلحاد والبدع وأخذت هذه الحملات صوراً متعددة وكانت أخطرها الإعجاب بالحضارة الغربية والتشبه بالغرب في المظهر والملبس والفكر والعادات والتقاليد والتقليل من قيمة الحضارة الإسلامية.

وكان للدعاة والمفكرين أثرهم في إعادة الأمور إلى نصابها[2]. وإن اختلفت أساليبهم في ذلك ولكن التحديات ما تزال مستمرة إلا أن ظروف الصراع ما

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم م١ ص٤١٨.

(٢) وكان للشيخ العالم الجليل محمد بن عبد الوهاب وللشيخ السنوسي وللشاعر محمد إقبال والشاعر أكبر إله آبادي والأستاذ أبو الأعلى المودودي وغيرهم جهود مشكورة في نقد الحضارة الغربية ومحاربة التشبه بهم وإبراز محاسن الحضارة الإسلامية وصد، تيار إعجاب وتقليد الغرب ومحاربة البدع والخرافات.

تزال تتجدد، والتحدي الذي جابهه المسلمون (التشبه بحضارة الغرب) ازداد خطره على المسلمين منذ القرن التاسع عشر الميلادي وما يزال مستمرًّا حتى الآن وإن كان خف وطؤه؛ فقد كانت السلطات الاستعمارية تشرف على بث نواحي الإعجاب بالحضارة الغربية وتغري المتشبهين بهم بالمناصب وبإعطاء الأولوية في تسليمهم زمام الأمور، وما زالت الحاجة ماسة في دراسة حديث «من تشبه بقوم فهو منهم» في ظروفنا الراهنة أكثر من أي وقت مضى.

فقه الحديث:

مشابهتهم فيما ليس من شرعنا قسمان:

أحدهما: مع العلم بأن هذا العمل من خصائص دينهم، فهذا العمل الذي هو من خصائص دينهم إما أن يُفعل لمجرد موافقتهم ـ وهو قليل ـ وإما لشهوة تتعلق بذلك العمل، وإما لشبهة فيه تخيل أنه نافع في الدنيا والآخرة، وكل هذا لا شك في تحريمه. ولكن يبلغ التحريم في بعضه إلى أن يكون من الكبائر وقد يصير كفرًا بحسب الأدلة الشرعية.

ثانيهما: هو عمل لم يعلم الفاعل أنه من عملهم، فهو نوعان:

النوع الأول: ما كان في الأصل مأخوذًا عنهم، إما عن الوجه الذي يفعلونه وإما مع نوع تغيير في الزمان أو المكان أو الفعل في مثل ما يضعونه في الميلاد فصاحبه يستفتي قلبه ويراجع العلماء في عصره ومصره.

والنوع الثاني: ما ليس في الأصل مأخوذًا عنهم، لكنهم يفعلونه أيضًا فهذا ليس فيه محذور المشابهة، ولكن قد تفوت فيه منفعة المخالفة، فتتوقف كراهة ذلك وتحريمه على دليل شرعي[1].

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم م١ ص ٤٩١.

ما يستفاد من الحديث :

١ - الحديث يحارب التشبه بالكفار والأعاجم ــ غير المسلمين ــ في الزي واللباس والعادات والتقاليد وحتى اللغة والرطانة والأعياد والاحتفالات .

٢ - ويحارب انتشار البدع الاعتقادية والعملية والإعجاب بالحضارة الغربية .

٣ - والحديث ينهى عن إحياء الشعائر الجاهلية وعاداتها وآثارها والثقافات غير الإسلامية المنتشرة هنا وهناك .

٤ - مشابهة أهل الكتاب والأعاجم غير المسلمين وغيرهم لا بد أن تورث عند المسلم نوعا من المودة لهم أو هي على الأقل مظنة المودة فتكون محرمة من هذا الوجه ؛ سدًّا للذريعة وحسماً لعادة حب الكافرين والولاء لهم . وهذا المشابهة بين المسلم والكافر على المودة الظاهرة بينهما قد يصل إلى الأمور الاعتقادية والفكرية الباطنة ، ولذلك حذر الرسول ﷺ قائلاً : «من تشبه بقوم فهو منهم» .